

أشهر الخطب

ومشاهير الخطباء

تأليف

سلامه موسى

مطبعة الهلال

١٩٢٤ م

المقدمة

ربما كانت الخطابة أقدم الفنون الادبية . فالهمج والمتمدينون سواء في الحاجة الى الخطيب يناشد فيهم حميتهم ووطنيتهم لذود العدو الجائح أو للغارة على جار مستضعف أو لاسترداد حق مسلوب أو اغتصاب ملك جديد

والخطيب الملهم يخاطب العواطف وقلّ أن يأبه للعقل . لأن الناس اذا اجتمعوا شملهم ادراك آخر غير ادراكهم الشخصي . فهم يفكرون أو بالاحرى يحسون جماعة . فينزلون عندئذ من سماء العقل والمنطق الى حضيض العواطف والشعور فتحركهم اللفظة المبهرجة وتستفزهم المعاني التافهة المنمقة . وهـذا هو السبب في ان الاقدمين لا يقلون عنا شأواً في الخطابة وفي ان أحسن الخطب عند الاستماع وسط الحشد يفقد شيئاً كبيراً من تأثيره وفعله في النفس اذا قرأه قارئ على انفراد . وذلك لما أشرنا اليه من ان الناس اذا اجتمعوا تغلبت عواطفهم على عقولهم وشمل نفوسهم شيء من التفزز يستثير فيهم الحزن أو السرور أو الحماسة لشئون لا يتحرك منها العقل . ولعل هـذا هو السبب الذي جعل المؤرخ الانجليزي فرود يسمي الخطابة بغيّ الفنون

لهذا كانت عيون الخطب التي حفظها التاريخ قليلة معدودة . لأن الخطبة ينطق بها الخطيب أمام الحشد ويعيرها فيضاً من

شخصيته من حيث انطلاق اللسان ورشاقة الحركة وجهارة الصوت تفقد هذه الميزات اذا عرض لها المؤرخ وهو منفرد جالس في هدوء مكتبته . لأنه وهو في هذه الحال يسلط عقله على انشاء لم يقصد به مواجهة العقل فيرى بهرجاً ما كان يظنه المجتمعون وهم في نشوة عواطفهم جوهراً خالصاً

وقد جمعنا في هـذا المجلد غرر الخطب وعيونها التي رضيها المؤرخون واحتملت تمحيصهم فدونوها وأبقوا عليها . وقد قسمناه جزأين : الاول يحتوي على خطب العرب والثاني يحتوي على خطب الاوربيين قديمهم وحديثهم . ومهدنا لكل خطبـة بترجمة مختصرة عن الخطيب الذي فاه بها

ولا بدلنا من الاشارة الى اننا اوردنا هذه الخطب بنصوصها الاصلية ونحن نعرف ما في بعضها من المخالفة لروح العصر الحاضر وانما اثبتناها لقيمتها التاريخية

سلامه موسى

*

الجزء الاول

عيون الخطب العربية

نبذة

في تاريخ الخطابة العربية

ليس يؤثر عن العرب في الجاهلية سوى خطب الكهان . ولا شك أن الخطابة كانت فناً معروفاً في ذلك الوقت يمارسها الرؤساء وذوو الرأي في القبائل للاستنفار والمناشدة . ولكن آداب الجاهلية من شعر وخطابة عفى آثارها الاسلام لما كانت تحويه من اشارات وثنية ونخوة جاهلية . والاسلام يكره الاثنتين لتعصبه للتوحيد ولرغبته في المساواة بين المسلمين . ثم كان الاسلام فخطب النبي كما خطب الخلفاء الراشدون وصارت « خطبة الجمعة » سنة وركنا من اركان الدين . وكانت الخطب في هذا الدور دينية محضة الا ما كان ينطق به القواد امثال خالد بن الوليد في ميادين القتال للحض على منازلة الاعداء

ثم جاءت الدولة الاموية فظهرت الخطب السياسية وصار للخطابة شأن وفن يمارس . ولعل القارىء يدرك خطر الخطابة في ذلك الوقت من اهتمام جميع المؤرخين بما فعله الوليد بن عبد الملك اذ كان يخطب وهو قاعد

أما في الدولة العباسية — وهي في اعتقادنا سبب انحطاط شأن العرب لنزوع الخلفاء نزعة دينية محضة — فأن الخطابة فقدت في عصرها صفة الأرتجال وملاءمة الخطبة للظرف المحيط بالخطيب .

وصارت الخطب تنسخ نسخاً وتحفظ حفظاً . فيتيض مجمعها غثاثة ويشبه أولها آخرها في قلة المعنى واتساق التفاهة

ثم اجتاح المغول الدول العربية ومحوها من الوجود الا صورة أبقوها في الخلافة العباسية وما كان أغناهم عن ذلك لأن الخلفاء العباسيين كانوا انفسهم من حيث الدم مغولا في ذلك الوقت

وحكم المغول من كرد وترك وأفغان وسائر الاسيويين الذين تسلطوا على البلاد العربيـة لم يتقلص ظله في الواقع الا منذ نحو مائة سنة حين نهض العرب في مصر وسوريا . وكانت مصر هي البادئة المتبوعة فظهر فيها خطباء . وكان أول ظهورهم في الثورة العرابية

رأى اديب عربى فى الخطابة

كان ابراهيم بن جبلة يعلم فتيان العرب الخطابة فمر به بشر بن المعتمد فوقف يستمع . فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد . فقال بشر : « اضربوا عما قال صفحاً . واطووا عنـه كشحا » ثم دفع اليهم صحيفة من تنميقه وتحبيره يصح أن نعتبر ما جاء فيها أساساً لما جرى عليه بعض العرب في تأليف الخطب

قال بشر في هذه الصحيفة : « خذ من نفسك ساعة نشـاطك وفراغ بالك واجابتها اياك . فأن نفسك تلك الساعة اكرم جوهراً وأشرف حسباً وأحسن في الاسماع وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ . وأجلب لكل عين من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم ان ذلك اجدى عليك مما يعطيك يومك الاطول بالكد والمطاولة . والمجاهدة بالتكليف والمعاودة ومهما اخطاك لم يخطئك

ان يكون مقبولا قصدا . وخفيفاً على اللسان سهلا . كما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه . واياك والتوعر فأن التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك . ومن أذاع معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً . فأن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف . ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من اجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارهما وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما . فكن في ثلاثة منازل :

« فاول ذلك ان يكون لفظك رشيقاً عذبا أو فخما سهلا . ويكون معناك ظاهراً مكشوفا وقريباً معروفاً . أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت واما عند العامة ان كنت للعامة اردت . والمعنى ليس يتضع ان يكون من معاني العامة . وانما مدار الامر على الشرف مع الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي . فانامكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة لفظك ولطف مداخلك وقدرك في نفسك على ان تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الالفاظ المتوسطة التي لا تلطف على الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام »

وقد عاش بشر في ايام الرشيد وكانت وفاته في سنة ١٨٣ هـ (٨٠٠ م) وكان معتزلي المذهب وانفرد بمسائل فصار رئيس طائفة يقال لها البشرية .

خطبة لقس بن ساعدة

كان قس خطيباً في جاهلية العرب وأدركه النبي فقال فيه : « يرحم الله قسا اني لارجو يوم القيامة ان يبعث امة وحده » وينسب اليه انه اول من قال : « اما بعد » . خطب في سوق عكاظ فقال :

ايها الناس اسمعوا وعوا . من عاش مات ومن مات فات . وكل ماهو آت آت . ليل داج ونهار ساج وسماء ذات ابراج . ونجوم تزهر . وبحار تزخر . وجبال مرساة . وارض مدحاة . وانهار مجراة . ان في السماء لخبرا . وان في الارض لعبرا . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون . أرضوا فأقاموا ام تركو فناموا . يقسم قس بالله قسما لا اثم فيه . ان لله ديناً هو ارضى لكم وافضل من دينكم الذي انتم عليه . انكم لتأتون من الامر منكرا

في الذاهبين الاولين — من القرون لنا بصائر
لما رايت موارداً — للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها — تمضي الاكابر والاصاغر
لا يرجع الماضي الي — ولا من الباقين غابر
أيقنت اني لا محا — لة حيث صار القوم صائر

خطبة للنبي

قال الاسكندري : « كان رسول الله ليس بالطويل ولا بالقصير . ضخم الرأس كث اللحية . عظيم الكفين والقدمين ومفاصل العظام . ابيض مشربا بحمرة . ادعج العينين سبط الشعر . سهل الخدين اقنى الانف اشمه . ن مقدم لحيته ومفرق رأسه شعرات بيض . وكان أرجح الناس عقلا وافضلهم رأيا . قليل المزاح واللغو . مطيل الصمت دائم البشر متفقداً لاصحابه متواضعا . يخصف نعله ويرقع ثوبه . وخرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير زهداً فيها » . قال في خطبة :

ايهــا الناس ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم . وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم . ان المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه . وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيــه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه . ومن دنياه لآخرته . ومن الشبيبة قبل الكبر . ومن الحيــاة قبل الموت . فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب

خطبة لابي بكر

كان ابو بكر اول الخلفاء الراشدين وقد ولي الخلافة من سـنة ٦٣٢ الى سنة ٦٣٤ م وعند ما بويع بالخلافة قام بالخطبة التالية :

ايها الناس اني قد وليت عليكم ولست بخيركم . والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له . والقوي منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . لا يدع احد منكم الجهاد في سبيل الله . فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم الله بالبلاء . وانما انا متبع ولست بمبتدع . فان استقمت فتابعوني وان زغت فقوموني . وانكم تردون وتروحون في اجل قد غيب عنكم علمه . فان استطعتم الا يمضي هذا الاجل الا وانتم في عمل صالح فافعلوا . وان الله لا يقبل من الاعمال الا ما اريد به وجهه . فاريدوه باعمــالكم وان ما اخلصتم لله من اعمالكم فطاعة اتيتموها . . . وضرائب اديتموها وسلف قدمتمــوه من ايام فانية لأخرى باقية لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم وتفكروا في من كان قبلكم اين كانوا امس واين هم اليوم . اين الجبارون . اين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن

الحروب . قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميا . قد تركت عليهم القالات الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات . واين الملوك الذين اثاروا الارض وعمروها . قد بعدوا ونسي ذكرهم وصاروا كلا شيء الا وقد ابقى الله عليهم التبعات وقطع عنهم الشهوات . ومضوا والاعمال اعمالهم والدنيا دنيا غيرهم . وبقينا خلفاً بعدهم . فان نحن اعتبرنا بهم نجونا وان اغتررنا كنا مثلهم . اين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم . صاروا ترابا وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم . اين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الاعاجيب قد تركوها لمن خلفهم . فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور . هل تحس منهم من احد أو تسمع لهم ركزاً . اين من تعرفون من ابنائكم واخوانكم . قد انتهت بهم اجالهم . فوردوا على ما قدموا فحلوا عليه واقاموا للشقوة والسعادة بعد الموت . الا ان الله ليس بينه وبين احد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ولا يصرف به عنه سوءاً الا بطاعته واتباع امره . واعلموا انكم عبيد مدينون وان ما عنده لا يدرك الا بطاعته . . .

خطبة لعمر بن الخطاب

لما ولي عمر الخلافة (من ٦٣٤ الى ٦٤٤ م) بعد ابي بكر صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

يا أيها الناس اني داع فامنوا . اللهم اني غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الاخرة . وارزقني الغلظة والشدة على اعدائك واهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم . اللهم اني شحيح فسخني في نوائب المعروف .

قصدا من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة . واجعلني ابتغي بذلك وجهك والدار الاخرة . اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين . اللهم اني كثير الغفلة والنسيان فالهمني ذكرك على كل حال وذكر الموت في كل حين . اللهم اني ضعيف عند العمل لطاعتك فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون الا بعزتك وتوفيقك . اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك وارزقني الخشوع في ما يرضيك عني والمحاسبة لنفسي واصلاح الساعات والحذر من الشبهات . اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر في عجائبه والعمل بذلك ما بقيت . انك على كل شيء قدير

خطبة لعلي بن ابي طالب

تولى علي الخلافة بين سنة ٦٥٧ وسنة ٦٦١ م بعد عثمان . وقد نسبت اليه عدة خطب ورسائل هي من ايات البلاغة الخالدة . وفي ما يلي احدى خطبه حمد الله واثنى عليه ثم قال :

اوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ولزوم طاعته وتقديم العمل وترك الأمل . فانه من فرط في عمله لم ينتفع بشيء من امله . أين التعب بالليل والنهار . المقتحم للجج البحار . ومفاوز القفار . يسير من وراء الجبال . وعالج الرمال . يصل الغدو بالرواح والمساء بالصباح . في طلب محقرات الارباح . هجمت عليه منيته . فعظمت بنفسه رزيته . فصار ما جمع بوراً . وما اكتسب غروراً ، ووافى القيامة محسوراً . ايها اللاهي الغار بنفسه كاني بك وقد

اتاك رسول ربك لا يقرع لك بابا . ولا يهاب لك حجابا . ولا يقبل منك بديلا . ولا يأخذ منك كفيلا . ولا يرحم لك صغيرا . ولا يوقر فيك كبيراً . حتى يؤديك الى قعر مظلمة . ارجاؤها موحشة. كفعله بالأمم الخالية والقرون الماضية . اين من سعى واجتهد وجمع وعدد . وبنى وشيد وزخرف ونجد . وبالقليل لم يقنع وبالكثير لم يمتع . اين من قاد الجنود ونشر البنود . اضحوا رفاتا تحت الثرى امواتا . وانتم بكاسهم شاربون . ولسبيلهم سالكون . عباد الله فاتقوا الله وراقبوه واعملوا لليوم الذي تسير فيه الجبال . وتنشق السماء بالغمام . وتتطاير الكتب عن الايمان والشمائل

خطبة اخرى لعلي بن ابي طالب

لما اغار سفيان بن عوف الاسدي بجيش من جيوش معاوية على الانبار وقتل عامل علي عليها حسان البكري خرج علي حتى جلس على باب السدة فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

اما بعد فان الجهاد باب من ابواب الجنة . فمن تركه البسه الله ثوب الذل واشمله البلاء والزمه الصغار وسامه الخسف . ومنعه النصف . الا واني دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسراً واعلاناً وقلت لكم : اغزوهم قبل ان يغزوكم فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم الا ذلوا . فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي . فاتخذتموه وراءكم ظهريا حتى شنت عليكم الغارات . هـذا اخو غامد قد بلغت خيله الانبار وقتل حسان البكري . وازال خيلكم عن مسارحها وقتل منكم رجالا صالحين . ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجل منهم . فلو أن رجلا مسلما مات من بعد هـذا اسفا

ما كان عندي ملوما بل كان به عندي جديراً . فواعجباً من جد هؤلاء في باطلهم وفشلكم عن حقكم . فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضاً يرمى يغار عليكم ولا تغيرون . وتغزون ولا تغزون . ويعصى الله وترضون . فاذا امرتم بالمسير اليهم في ايام الحر قلتم : « حمارة القيظ امهلنا حتى يسبخ عنا الحر » . واذا امرتم بالمسير اليهم ضحى في الشتاء قلتم : «امهلنا حتى ينسلخ عنا هذا القر» . فانتم والله من السيف افر . يا اشباه الرجال ولا رجال . ويا أحلام أطفال وعقول ربات الحجال . وددت ان الله أخرجني من بين أظهركم وقبضني الى رحمته من بينكم واني لم اركم ولم اعرفكم معرفة . ولله حرت وهنا . ووريتم والله صدري غيظاً . وجرعتموني الموت انفاساً . وأفسدتم على رايي بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش ان ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله ابوهم . وهل منهم احد اشد لها مراساً وأطول تجربة مني . لقد مارستها وانا ابن عشرين . فها انا ذا قد نيفت على الستين ولكن لا رأي لمن لا يطاع

خطبة اخرى لعلي بن ابي طالب

الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه واستوجبه على جميع خلقه . الذي ناصية كل شيء بيده ومصير كل شيء اليه . والقوي في سلطانه اللطيف في جبروته . لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع . خالق الخلائق بقدرته ومسخرهم بمشيئته . وفي العهد صادق الوعد . شديد العقاب جزيل الثواب . احمده واستعينه على ما انعم به مما لا يعرف كنهه غيره . واتوكل عليه توكل المستسلم لقدرته . المتبري من الحول والقوة اليه . واشهد شهادة لا يشوبها شك انه

لا اله الا هو وحده لا شريك له الها واحداً صمداً . لم يتخذ صاحبة ولا ولداً . ولم يكن له شريك في الملك . وهو على كل شيء قدير . قطع ادعاء المدعي بقوله عز وجل «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» واشهد ان محمداً صلى الله عليه وسلم صفوته من خلقه وامينه على وحيه . ارسله بالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً والى الحق داعياً . على حين فترة من الرسل . وضلالة من الناس واختلاف من الأمور . وتنازع من الالسن . حتى تمم به الوحي وانذر به أهل الارض . اوصيكم عباد الله بتقوى الله فانها العصمة من كل ضلال والسبيل الى كل نجاة . فكأنكم بالجثث قد زايلتها ارواحها وتضمنتها أجداثها . فلن يستقبل معمر منكم يوماً من عمره الا بانتقاص آخر من اجله . وانما دنيا كم كفيء الظل أو زاد الراكب . واحذركم دعاء العزيز الجبار عبده . يوم تعفى اثاره وتوحش منه دياره ويؤتم صغاره . ثم يصير الى حفير من الارض متعفراً على خده . غير موسد ولا ممهد . اسأل الذي وعدنا على طاعته جنته . ان يقينا سخطه ويجنبنا نقمته ويهب لنا رحمته . ان أبلغ الحديث كتاب الله

خطبة اخرى لعلي بن ابي طالب

استنفر علي اهل الكوفة لحرب الجمل فاقبلوا اليه مع ابنه الحسن فقام فيهم خطيباً فقال :

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين

اما بعد . فان الله بعث محمداً عليه الصلاة والسلام الى الثقلين

كافة والناس في اختلاف . والا ربث بشر المنازل . . . فرأب الله به الثأي . ولأم به الصدع . ورتق به الفتق . وأمن به السبل . وحقن به الدماء . وقطع به العداوة الواغرة في القلوب . والضغائن المخشنة للصدور . ثم قبضه الله عز وجل مشكوراً سعيه . مرضياً عمله . مغفوراً ذنبه . كريماً عند ربه نزله . فيالها مصيبة عمت المسلمين . وخصت الاقربين . وولي ابو بكر فسار بسيرة رضيها المسلمون . ثم ولي عمر فسار بسيرة ابي بكر رضي الله عنهما . ثم ولي عثمان فنال منكم ونلتم منه حتى اذا ما كان من امره ما كان اتيتموه فقتلتموه . ثم اتيتموني فقلتم لي : بايعنا . فقلت لكم لا افعل . وقبضت يدي فبسطتموها . ونازعتكم كفي فجذبتموها وقلتم : لا نرضى الا بك . ولا نجتمع الا عليك . وتداككتم علي تداك الابل الهيم على حياضها يوم ورودها . حتى ظننت انكم قاتلي وان بعضكم قاتل بعض . فبايعتموني وبايعني طلحة والزبير ثم ما لبثا ان استأذناني للعمرة فسارا الى البصرة فقتلا بها المسلمين . وفعلا الافاعيل وهما يعلمان والله اني لست بدون واحد ممن مضى . ولو اشاء ان اقول لقلت اللهم انهما قطعا قرابتي . ونكثا بيعتي والبا علي عدوي . اللهم فلا تحكم لهما ما ابرما . وارهما المساءة عملا وأملا

خطبة لمعاوية بن ابي سفيان

كان معاوية اول خلفاء الدولة الاموية وقد توفي سنة ٦٠ هـ . الموافقة لسنة ٦٨٠ م . وكان « مربي دول وسائس امم وراعي ممالك » ويحكى انه لما حضرته الوفاة جمع اهله فقال : الستم اهلي . قالوا : بلى فداك الله بنا . قال : فهذه نفسي قد خرجت من قدمي فردوها علي ان استطعتم . فبكوا وقالوا : مالنا الى هذا سبيل . فرفع صوته بالبكاء ثم قال : فلا تغركم الدنيا بعدي

قال القحذمي: لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلقاه رجال قريش . فقالوا : الحمد لله الذي اعز نصرك وأعلى كعبك . قال : فو الله ما رد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

فأني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي . ولكني جالدتكم بسيفي هـذا مجالدة . ولقد رضت لكم نفسي على عمل بن ابي قحافة واردتهـا على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً . وأردتها على ثنيات عثمان فابت علي . فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة . فان لم تجدوني خيركم فاني خير لكم ولاية . والله لا احمل السيف على من لا سيف له وأن لم يكن منكم الا ما يستشفي به القائل بلسانه . فقد جعلت ذلك له دبر اذني وتحت قدمي . وان لم تجدوني اقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه فان أتاكم مني خير فاقبلوه . فأن السيل اذا جاء يتري . وان قل اغنى. واياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة

خطبة اخرى لمعاوية

صعد منبر المدينة فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

يا أهل المدينة . اني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق يعيبون الشيء وهم فيه . كل امرىء منهم شيعة نفسه . فاقبلونا بما فينا فأن ما وراءنا شر لكم . وان معروف زماننا هـذا منكر زمان قد مضى ومنكر زماننا معروف زمان لم يات . ولو قد اتى فالرتق خير من الفتق . وفي كل بلاغ . ولا مقام على الرزية

خطبة اخرى لمعاوية

لما مرض معاوية مرض وفاته قال لمولى له : من بالباب . قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك . قال : ويحك لم ؟ فوالله ما لهم بعدي الا الذي يسوءهم . وأذن للناس فدخلوا . فحمد الله وأثنى عليه واوجز . ثم قال :

أيها الناس . انا قد أصبحنا في دهر عتود وزمن شديد. يعد فيه المحسن مسيئاً و يزداد الظالم فيه عتواً . لا ننتفع بما علمنا . ولا نسأل عما جهلنا ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا . فالناس على اربعة أصناف منهم من لا يمنعه من الفساد في الارض الا مهانة نفسه . وكلال حده ونضيض وفره . ومنهم المصلت لسيفه المجلب برجله المعلن بسره . وقداشرط نفسه وأوبق دينه . لحطام ينتهزه أومقنب يقوده . . . ولبئس المتجران تراها لنفسك ثمناً . و مالك عند الله عوضاً . ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة . ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا . قد طامن من شخصه وقارب من خطوه . وشمر عن ثوبه و زخرف نفسه للامانة . واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية . ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه . فقصرت به الحال عن حاله . فتحلى باسم القناعة وتزيا بلباس الزهادة . وليس ذلك في مراح ولا مغدى . و بقي رجال اغض ابصارهم ذكر المرجع . وأراق دموعهم خوف المضجع . فهم بين شريد باد و بين خائف منقمع وساكت مكعوم . وداع مخلص وموجع ثكلان قد أخملتهم التقية . وشملتهم الذلة . فهم في بحر اجاج أفواههم ضامرة وقلوبهم قرحة . قد وعظوا حتى ملوا . وقهروا حتى ذلوا . وقتلوا حتى قلوا . فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة

القرظ وقرارة الحلم . واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم . وارفضوها ذميمة فقد رفضت من كان اشفق بها منكم

خطبة لزياد بن ابيه

كان زياد داهية من دهاة العرب ولم يكن يعرف له أب فاستلحقه معاوية ابن ابي سفيان باسرته وادعى انه اخوه وولاه الولايات فاخلص له الخدمة وفتك بشيعة علي وجعل يتعقبهم في انحاء ولايته . وقد مات سنة ٥٣ هـ (٦٧٤ م) قيل أن معاوية ولاه البصرة وخراسان وسجستان . والفسق بالبصره ظاهر فاش . فخطب خطبة بتراء لم يحمد الله فيها قال فيها :

أما بعد فأن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والعمى الموفى باهله على النار ما فيه سفهاؤكم وتشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . كأنكم لم تقراوا كتاب الله . ولم تسمعوا لما اعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته . والعذاب العظيم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا . وسدت مسامعه الشهوات . واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون انكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه من تركم هذه المواخير المنصوبة . والصفقة المسلوبة . في النهار المبصر . والعدد غير قليل . ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار . . . كل امرىء منكم يذب عن سفيهه : صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء . فلم يزل بكم من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام . . .

حرام علي الطعام والشراب حتى أسويها بالارض هدماً واحراقاً .

اني رأيت آخر هـذا الأمر لا يصلح الا بما صلح به اوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف . واني اقسم بالله لآخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن . والمقبـل بالمدبر . والصحيح بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : انج سعيد فقد هلك سعد . أو تستقيم لي قناتكم . ان كذبة الامير تامى مشهورة . فاذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي

من نقب منكم عليه فانا ضامن لما ذهب له . فاياي ودلج الليل فاني لا اوتي بمدلج الا سفكت دمه . وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما ياتي الخبر الكوفة ويرجع اليكم . واياي ودعوى الجاهلية . فاني لا أجد أحداً دعا بهـا الا قطعت لسانه . وقد أحدثتم احداثا لم تكن وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن اغرق قوما اغرقنـاه . ومن احرق قوما أحرقناه . ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه . ومن نبش قبراً دفنـاه فيه حيا . فكفوا عني ألسنتكم وأيديكم اكف عنكم يدي ولساني . ولا يظهرن من أحد منكم ريبة بخلاف ماعليه عامتكم الا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين قوم احن فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمي . فمن كان محسناً فليزدد في احسانه . ومن كان مسيئا فلينزع عن اساءته . اني وان علمت أن احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته فأن فعل لم أناظره . فاسـتأنفوا أموركم واعينوا على أنفسكم . فرب مبتئس بقدومنا سيسر . ومسرور بقدومنا سيبتئس

ايها الناس انا أصبحنا لكم ساسة وعنكم دارة نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا . ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا . فلنا عليكم

السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل في ماولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا اني مهما أقصر فيه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة ولو أتاني طارقا بليل . ولا حابساً عطاء ولا رزقا . . . ولا مجمراً لكم بعثا

فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي اليه تأوون . ومتى يصلحوا تصلحوا . ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك أسفكم . ويطول له حربكم ولا تدركوا حاجتكم مع انه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . اسأل الله أن يعين كلا على كل . واذا رأيتموني انفذ فيكم امراً فانفذوه على اذلاله . وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي (مختصرة)

خطبة ليزيد بن معاوية

بويع ليزيد بالخلافة يوم مات ابوه معاوية وتوفي سنة ٦٤ هـ الموافقة لسنة ٦٨٣ م . وقد « تعلم الفصاحة ونظم الشعر في بادية بني كلب »

خطب بعد موت ابيه فقال :

الحمد لله الذي ما شاء صنع . من شاء اعطى ومن شاء منع . ومن شاء خفض ومن شاء رفع . ان امير المؤمنين كان حبلا من حبال الله مده ما شاء أن يمده . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه . وكان دون من قبله . وخيراً ممن يأتي بعده . ولا أزكيه عند ربه وقد صار اليه . فان يعف عنه فبرحمته . وان يعاقبه فبذنبه . وقد وليت بعده الامر . ولست اعتذر من جهل . ولا آسى على طلب علم

خطبة لخالد بن الوليد

كان خالد بن الوليد من المشهورين بالشجاعة والشرف والرياسة . سماه النبي « سيف الله » وحارب مسيلمة الكذاب وهدم العزى وله اثار مشهورة في قتال الروم والفرس وكانت وفاته في خلافة عمر سنة ٢١ هـ الموافقة لسنة ٦٤٣ وقد خطب الخطبة التالية بين جيوشه يحضهم على القتال في اجنادين احدى نواحي فلسطين في معركة بين الروم والعرب قال :

يا معاشر الناس انصروا الله ينصركم . وقاتلوا في سبيل الله واحتسبوا انفسكم في سبيل الله واصبروا على قتال أعدائكم . وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ودينكم . وليس لكم ملجأ تلجاون اليه ومكمن تكمنون فيه . فاقرنوا المناكب وقدموا المضارب . ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة . ولتكن السهام مجتمعة اذا خرجت من القسي كأنها تخرج من كبد قوس واحد . فانه اذا تلاحمت السهام رشقاً كالجراد لم يخل أن يكون فيها سهم صائب . واصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون . واعلموا أنكم لا تلقون عدوا مثل هذه الفئة حماتهم وأبطالهم وملوكهم

خطبة لطارق بن زياد

كان طارق بن زياد مولى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموي في افريقية . وكان منزله القيروان . وحدث ان يوليان احد رجال الدين في اسبانيا كان حاقداً على الملك . فوضع حقده فوق وطنه . وارسل الى موسى فاستنجد به . فارسل اليه موسى طارقا . فعبر بحر العدوة والتقى بالملك رودريق فتحاربا اياما وقتل الملك . وصارت الاندلس للعرب . وسمع موسى بخبر الفتح وحسد طارقا فعبر البحر في عشرة الاف فتلقاه طارق وترضاه فرضى عنه . وسار موسى بن نصير الى فرنسا وقطع جبال بيرينيه وبلغ كركونا . ثم

استرجعه الخليفة الوليد الى دمشق ونكبه ونفاه الى مكة فتوفى بها في سنة ٩٧ ﻫ الموافقة لسنة ٧١٨ م . وكان فتح طارق للاندلس في سنة ٧١١ م وكان خروج المسلمين من الاندلس سنة ١٤٩٢ م

لما بلغ طارقا دنو رودريق قام في اصحابه فحمد الله واثنى عليه بما هو اهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال :

ايها الناس اين المفر . البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مادبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه . واسلحته واقواته موفورة . وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم . ولا اقوات الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها عنكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد القت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت . واني لم احذركم امراً انا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس الا وانا أبدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فما حظكم فيه باوفر من حظي . وقد بلغكم ما انشات هذه الجزيرة من الخيرات العميمة . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عرباناً . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً وأختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان . واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة . ولتكون بغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين

سواكم . والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا اني أول مجيب الى ما دعوتكم اليه . واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلكت بعده فقد كفيتم امره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه . وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله

خطبة لعمر بن عبد العزيز

كان عمر بن عبد العزيز أحد خلفاء بني امية وكان عفيفاً زاهداً يميل الى النسك والاعتكاف وكان يتحرى سيرة الخلفاء الراشدين وهو اول من فرض لابناء السبيل وابطل في الخطب سب علي بن ابي طالب . وكانت خلافته من سنة ٧١٧ الى سنة ٧٢٠ م . وقيل انه مات مسموما دس له الامويون سما خشية ان يعيد الخلافة شورى بين المسلمين فتخرج من ايديهم . ومن خطبه هذه الخطبة التي القاها في خناصرة :

أيها الناس . انكم لم تخلقوا عبثاً ولم تتركوا سدى . وان لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه . فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء وحرم جنة عرضها السموات والارض . واعلموا ان الامان غدا لمن يخاف اليوم وباع قليلا بكثير وفانيا بباق . الا ترون انكم في أصلاب الهالكين . وسيخلفها من بعدكم الباقون حتى يردوا الى خير الوارثين . انكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحاً الى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله . ثم تغيبونه في صدع من الارض . ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد . قد خلع الاسباب وفارق الاحباب . وواجه الحساب . غنياً عما ترك فقيراً الى

ما قدم . وايم الله اني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم اكثر مما عندي . وأستغفر الله لي ولكم . وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا الا سددناها . ولا أحد منكم الا وددت ان يده مع يدي ولحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم . وايم الله اني لو اردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقا ذلولا عالماً باسبابه . ولكنه مضى من الله سنة عادلة دل فيها على طاعته ونهى عن معصيته

خطبة لقطري بن الفجاءة

كان قطري أحد رؤوس الخوارج الذين كانوا يعدون خلفاء بني امية وعلي ابن ابي طالب مغتصبين للخلافة فلم تكن عليهم لهم طاعة . وكانو يولون خلفاءهم بانفسهم . فكان قطري أحد خلفائهم . وكان يجمع بين الشجاعة والبلاغة . وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يسير اليه جيشاً بعد جيش فيعود بالهزيمة . ولم تزل الحال كذلك حتى توجه اليه سفيان بن الابرد فظهر عليه وقتله سنة ٧٨ ﻫ الموافقة لسنة ٦٩٨ م

وهذه الخطبة ينسبها جامع « نهج البلاغة » الى علي بن ابي طالب كما هي عادته في نسبة كل ما يستجيده من الخطب والكلام البارع اليه حتى بلغ به الشطط أن نسب اكثر الحكم اليونانية المشهورة اليه

قال قطري :

أما بعد فأني احذركم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل . وتحببت بالعاجل وعمرت بالامال . وتحلت بالاماني وزينت بالغرور . لا تدوم زهرتها ولا تؤمن فجعتها . غرارة ضرارة . وحائلة زائلة . ونافدة بائدة . لا تعدو اذا تناهت الى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قيل : كماء أنزلناه فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيما . مع ان امرأ لم يكن منها في حبرة الا

اعقبته بعدها عبرة . ولم يلق من سرائها بطناً . الا منحته من ضرائها ظهراً . ولم تطله منها ديمة رخاء . الا هطلت عليه مزنة بلاء . وحري اذا اصبحت له منتصرة ان تمسي له خاذلة متنكرة . وان جانب منها اعذوذب واحلولى أمر عليه منها جانب فأوبا . وان لبس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعما أرهقته من نوائبها غماً . ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن الا أصبح منها في قوادم خوف . غرارة غرور ما فيها باقية . فانٍ ماعليها . لا خير في شيء من زادها الا التقوى . من أقل منها استكثر مما يؤمنه . ومن استكثر منها لم يدم له . وزال عما قليل عنه . . . كم واثق بها قد فجعته وذي طمأنينة اليها قد صرعته . وكم من محتال بها قد خدعته . وكم ذي أبهة فيها قد صيرته حقيراً وذي نخوة فيها قد ردته ذليلا . وذي تاج قد كبته لليدين والفم . سلطانها دول . وعيشها رنق . وعذبها أجاج . وحلوها مر . وغذاؤها سمام . وأسبابها زحام . وقطافها سلع . حيها بعرض موت وصحيحها بعرض سقم . ومنيعها بعرض اهتضام . مليكها مسلوب . وعزيزها مغلوب . وسليمها منكوب . وجارها وجامعها محروب . مع ان من وراء ذلك سكرات الموت وزفراته وهول المطلع والوقوف بين يدي الحكم العدل . ليجزي الذين أساءوا بما عملوا . ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . الستم في مساكن من كان منكم أطول أعماراً . وأوضح اثاراً . وأعد عديداً . وأكثف جنوداً . وأعتد عتادا . وأطول عماداً . تعبدوا الدنيا أي تعبد . وآثروها أي ايثار . وظعنوا عنها بالكره والصغار . فهل بلغكم ان الدنيا سمحت لهم نفساً بفدية . . . بل أرهقتهم بالفوادح وضعضعتهم بالنوائب وعفرتهم للمناخر . واعانت عليهم ريب المنون وارهقتهم بالمصائب . وقد

رأيتم تنكرها لمن دان لها وآثرها وأخلد اليها . حتى ظعنوا عنها لفراق الابد الى آخر الامد . هل زودتهم الا الشقاء واحلتهم الا الضنك . او نورت لهم الا الظلمة . واعقبتهم الا الندامة . افهذه تؤثرون . أو على هذه تحرصون . او اليها تطمئنون . فبئست الدار لمن لم يتهمها ولم يكن فيها على وجل منها . اعلموا ــ وانتم تعلمون ــ انكم تاركوها الابد . فانما هي لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد . فاتعظوا فيها بالذين يبنون بكل ربع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وبالذين قالوا : من أشد منا قوة . واتعظوا بمن رأيتم من اخوانكم كيف حملوا الى قبورهم فلا يدعون ركباناً . وانزلوا فلا يدعون ضيفانا . وجعل لهم من الضريح اكنان . ومن التراب اكفان . ومن الرفات جيران . فهم جيرة لا يجيبون داعيا ولا يمنعون ضيما . ان اخصبوا لم يفرحوا . وان قحطوا لم يقنطوا . جمع وهم آحاد . جيرة وهم أبعاد . متناؤون وهم يزارون ولا يستزيرون . حلماء قد ذهبت اضغانهم . وجهلاء قد ماتت أحقادهم . لا يخشى فجعهم . ولا يرجى دمعهم . وهم كمن لم يكن . استبدلوا بظهر الارض بطنا وبالسعة ضيقاً وبالآل غربة وبالنور ظلمة . فجاؤوها حفاة عراة فرادى غير ان ظعنوا باعمالهم الى الحياة الدائمة . الى خلود الابد . فاحذروا ما حذركم الله وانتفعوا بمواعظه واعتصموا بحبله . عصمنا الله واياكم بطاعته ورزقنا واياكم اداء حقه

خطبة للحجاج

كان الحجاج بن يوسف الثقفي عامل الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان على العراق وخراسان وتوفي سنة ٩٧ هـ . الموافقة لسنة ٧١٦ م . وكان شرس الطبع سفاكا للدماء ولم يكن يخجل من الجهر بأن اكبر لذاته سفك الدماء . وهو الذي بنى مدينة واسط وينسب اليه وضع علامات الحروف المشتبهة في الخط العربي حتى لا يقع تصحيف في القرآن . ولولاه لاستفحل امر الخوارج فهو الذي خضد شوكتهم بما أرسله عليهم من الجيوش تلو الجيوش

ومما يحكى عنه انه قال في احدى خطبه : « سوطي سيفي ونجاده في عنقي وقائمه في يدي وذبابه قلادة لمن اغتر بي » . وكان الحسن حاضراً فقال : « بؤسا لهذا ما اغره بالله »

خطب بين اهل العراق فقال :

يا أهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاد والشغاف . ثم مضى الى الامخاخ والاصماخ . ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ . فحشاكم شقاقا ونفاقا... اتخذتموه دليلا تتبعونه وقائداً تطيعونه ومؤمراً تستشيرونه وكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة او يحجزكم اسلام أو يردكم ايمان . الستم أصحابي بالاهواز . حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر واستجمعتم للكفر . وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته . وانا ارميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذاً وتنهزمون سراعاً . يوم الزاوية وما يوم الزاوية . بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم إذ وليتم كالابل الشوارد الى أوطانها . النوازع الى أعطانها . لا يسأل المرء منكم عن اخيه . ولا يلوي الشيخ على بنيه . حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح . يوم دير الجماجم وما دير الجماجم . بها كانت المعارك والملاحم . بضرب يزيل

الهـام عن مقيله . ويذهل الخليل عن خليـله . يا أهل العراق . والكفرات الفجرات والغدرات بعد الختزات والثورة بعد الثورات . . . هل استخفكم ناكث واستغواكم غاو واستفزكم عاص واستصرخكم ظالم واستعضدكم خالع الا وثقتموه وآويتموه وعزرتموه ونصرتموه ورضيتموه . يا أهـل العراق . هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو نعق ناعق أو زفر زافر الا كنتم اتباعه وأنصاره . يا اهل العراق . ألم تنهكم المواعظ . ألم تزجركم الوقائع

خطبة اخرى للحجاج

خطب بالبصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ان الله كفانا مؤونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة . فليته كفانا مؤونة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيـا . ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لايتعلمون . وشراركم لايتوبون . ما لي أراكم تحرصون على ما كفيتم وتضيعون ما به أمرتم . ان العلم يوشك أن يرفع . ورفعه ذهاب العلماء . الا واني اعـلم بشراركم من البيطار بالفرس . الذين لايقراون القرآن الا هجراً . ولا يأتون الصلاة الا دبراً . الا وأن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر . الا وأن الآخرة أجل مستاخر يحكم فيها ملك قادر . الا فاعملوا وانتم من الله على حذر . واعلموا انكم ملاقوه ليجزي الذين اساءوا بما عملوا . ويجزي الذين احسنوا بالحسنى . الا وان الخير كله بحذافيره في الجنة . الا وأن الشر كله بحذافيره في النار . الا وان من يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . واستغفر الله لي ولكم

خبطة اخرى للحجاج

خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار . وقد كان فشا امر الخوارج وتفاقم . وتثاقل الناس عن اللحاق بالمهلب الذي كان يناجزهم . فصعد المنبر وهو ملثم بعمامة حمراء . فقال : علي بالناس ، فحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به . حتى اذا اجتمع الناس قام ثم كشف عن وجهه وقال :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني
صليب العود من سلفي نزارا   كنصل السيف وضاح الجبين
وماذا تبتغي الشعراء مني   وقد جاوزت حد الاربعين
اخو خمسين مجتمع اشدي   وتنجدني مداورة الشؤون

. . أما والله اني لأحمل الشر بحمله واحذوه بنعله واجزيه بمثله . واني لأرى رؤساً قد أينعت وحان قطافها . واني لصاحبها واني لأنظر الدماء بين العمائم واللحى تترقرق :

قد شمرت عن ساقها فشمري   هذا أوان الحرب فاشتدي زيم
قد لفها الليل بسواق حطم   ليس براعي ابل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بعصلبي   اروع جراح من الدوى
مهاجر ليس باعرابي

قد شمرت عن ساقها فشدوا   ما علتي وانا شيخ اد
والقوس فيها وتر عرد   مثل ذراع البكر أو اشد

اني والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق . لا يغمز جانبي كتغماز التنين . ولا يقعقع لي بالشنان . ولقد فررت عن ذكاء . وفتشت عن تجربة . واجريت مع الغاية .

وان امير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم عيدانها . فوجدني امرها عودا واشدها مكسراً . فوجهني اليكم ورماكم بي . فانه قد طالما اوضعتم في الفتن . وسننتم سنن الغي . وايم الله لالحونكم لحو العصا . ولأقرعنكم قرع المروة . ولأعصبنكم عصب السلمة . ولأضربنكم ضرب غرائب الابل . اما والله لا اعد الا وفيت . ولا اخلف الا فريت . وإياي وهذه الزرافات والجماعات . وقال وقيل . وما يقولون وفيم أنتم . والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده . من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهبت ماله وهدمت منزله

خطبة لابي حمزة

في اواخر الدولة الاموية خرج عبد الله بن يحي وكان من حضرموت فانكر طاعة خلفاء بني امية « لأنه رأى جورا ظاهراً وعسفاً شديداً وسيرة في الناس قبيحة » فدعا الناس الى مبايعته . فبايعوه . وكان من أشد أنصاره رجل يدعى ابا حمزة . فجيش الجيوش وفتح مكة والمدينة . وفتح أبو حمزة المدينة في سنة ١٣٠ ه . وخطب اهلها الخطبة التالية :

يا أهل المدينة سألناكم عن ولاتكم هؤلاء . فأسأتم لعمر الله فيهم القول . وسألناكم : هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم . وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم . فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم . فناشدهم الله أن يتنحوا عنا وعنكم ليختار المسلمون لانفسهم فقلتم لا تفعلون . فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم، نلقاهم . فأن نظهر نحن وأنتم نأت بمن يقيم فينا كتاب الله وسنة نبيه وان نظفر نعدل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم . ونقسم

فيئكم بينكم . فان أبيتم وقاتلتمونا دونهم قاتلناكم . فابعدكم الله واسحقكم يا أهل المدينة . مررت بكم في أزمان الاحول هشام ابن عبد الملك وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فركبتم اليه تسألونه ان يضع خراجكم عنكم . فكتب بوضعها عنكم . فزاد الغني غنى وزاد الفقير فقراً . فقلتم : جزاك الله خيراً . فلا جزاه الله خيراً ولا جزاكم

خطبة اخرى لأبي حمزة

خطب هذه الخطبة في اهل المدينة فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

أتعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا لهواً . ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه . ولا ثأر قديم نيل منا . ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت . وعنف القائل بالحق . وقتل القائم بالقسط . ضاقت علينا الارض بما رحبت . وسمعنا داعياً يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن . فاجبنا داعي الله . ومن لا يجيب داعي الله فليس بمعجز في الارض . فاقبلنا من قبائل شتى . النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وانفسهم . يتعاورون لحافا واحداً . قليلون مستضعفون في الارض . فآوانا الله وايدنا بنصره . وأصبحنا والله بنعمته اخوانا . ثم لقينا رجالكم بقديد . فدعوناهم الى طاعة الرحمن وحكم القرآن . ودعونا الى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان . شتان لعمر الله ما بين الغي والرشد . ثم أقبلوا يهرعون ويزفون . قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله . وصدق عليهم ظنه . وأقبل أنصار الله

عصائب وكتائب . بكل مهند ذي رونق . فدارت رحانا واستدارت
رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون . وأنتم يا اهل المدينة ان تنصروا
مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بايدينا و يشف
صدور قوم مؤمنين . يا اهل المدينة ان أولكم خير اول واخركم شر
آخر . يا اهل المدينة . الناس منا ونحن منهم الا مشركا عابد وثن .
أو كافراً من أهل الكتاب . أو اماماً جائراً . يا أهل المدينة . من
زعم ان الله تعالى كلف نفساً فوق طاقتها ، أو سالها عما لم يؤتها .
فهو لله عدو ولنا حرب . . . يا أهل المدينة بلغني انكم تنتقصون
أصحابي . قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفاة . ويحكم يا اهل
المدينة . وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شباباً
أحداثاً ؟ شبابا والله . مكتهلون في شبابهم . غضيضة عن الشر
اعينهم . ثقيلة عن الباطل أقدامهم . قد باعوا أنفسا تموت غدا .
بانفس لا تموت ابداً . . . منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن .
كلما مروا باية خوف شهقوا خوفا من النار . واذا مروا بآية شوق
شهقوا شوقا الى الجنة . فلما نظروا الى السيوف قد انتضيت والى
الرماح قد أشرعت والى السهام قد فوقت . وارعدت الكتيبة
بصواعق الموت . استخفوا وعيد الكتيبة عند وعيد الله . ولم
يستخفوا وعيد الله عند وعيد الكتيبة . فطوبى لهم وحسن مآب .
فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله .
وكم من يد قد ابينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً
وساجداً . أقول قولي هـذا واستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقي
الا بالله عليه توكلت واليه أنيب

خطبة المنصور الخليفة العباسي

كان الخلفاء العباسيون يمتازون على خلفاء بني امية بقرابتهم من النبي . وكانت هذه القرابة سبباً في نعرة دينية يتباهون بها على سائر المسلمين . فكانوا يتكلمون بلهجة باباوات رومية في القرون الوسطى . وكانوا يتمادون في الاتوقراطية لا يعرفون معنى الشورى او الدستور . وخطبة المنصور تدل القارىء على مبلغ عتو هذه الدولة وغرور خلفائها بنفوسهم كما هي ايضاً علامة من علامات الزمن آذنت بانحطاط الدول العربية التي رضيت باستبداد خلفائها

وقد بويع المنصور في سنة ١٣٦ هـ الموافقة لسنة ٧٥٤ م وتوفي في سنة ٧٧٥ م . وهو قاتل أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية وباني مدينة بغداد

خطب في مكة فقال :

ايها الناس انما انا سلطان الله في ارضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده . وحارسه على ماله اعمل فيه بمشيئته وارادته وأعطيه باذنه وقد جعلني الله عليه قفلا . ان شاء أن يفتحني فتحني لاعطائكم وقسم ارزاقكم . فان شاء أن يقفلني عليها اقفلني . فارغبوا الى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضلة ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » ان يوفقني للرشاد والصواب . وأن يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم

خطبة الخليفة المهدي

لما توفي المنصور بويع لابنه المهدي وكان المهدي « شديداً على اهل الالحاد والزندقة لا تؤخره في اهلاكهم لومة لائم » وقد حكم من سنة ٧٧٥ الى سنة ٧٨٥ م . والخطبة التالية اشهر ما يؤثر عنه

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ورضي به من خلقه . واحمده على آلائه واجده لبلائه ... واستعينه وأومن به وأتوكل عليه توكل راض بقضائه وصابر لبلائه . اوصيكم عباد الله بتقوى الله فان الاقتصار عليها سلامة . والترك لها ندامة . واحثكم على أجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته . والانتهاء الى ما يقرب من رحمته . وينجي من سخطه . وينال به ما لديه من كريم الثواب . وجزيل المآب . فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب . واليم العذاب . ووعيد الحساب . يوم توقفون بين يدي الجبار . وتعرضون فيه على النار . يوم لا تتكلم نفس الا باذنه . فمنهم شقي وسعيد . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وبنيه . لكل امرىء يومئذ شأن يغنيه . يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون . يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . ان وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . فان الدنيا دار غرور و بلاء وشرور . واضمحلال و زوال . وتقلب وانتقال . قد أفنت من كان قبلكم وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم . من ركن اليها صرعته ومن وثق بها خانته . ومن املها كذبته . ومن رجاها خذلته . عزها ذل . وغناها فقر . والسعيد من تركها والشقي من آثرها . والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها . فالله . الله . عباد الله . والتوبة مقبولة والرحمة مبسوطة . وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الايام الخالية قبل أن يؤخذ بالكظم وتندموا فلا تنالون لندم يوم حسرة وتأسف . وكآبة وتلهف . يوم ليس كالأيام . وموقف ضنك المقام

خطبة لهارون الرشيد

كان هارون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين وكان « يبكي على نفسه وعلى اسرافه وذنوبه » و « له مناقب لا تحصى ومحاسن لا تستقصى وله اخبار في اللهو واللذات سامحه الله »

قال النهرواني : « اعلم ان مما يتحققه العاقل ان الدنيا دار الاكدار وان اخف الخلق بلاء والماً الفقراء . وأعظم الناس تعباً وهماً وغماً هم الملوك والامراء . . . ان هارون الرشيد من اعقل الخلفاء العباسيين وأكملهم رأياً وتدبيراً وفطنة وقوة واتساع مملكة وكثرة خزائن بحيث كان يقول للسحابة : امطري حيث شئت فان خراج الارض التي تمطرين فيها يجيء الي وكان مع ذلك اتعبهم خاطراً واشغلهم قلباً »

ولي الرشيد سنة ١٧٠ وتوفى سنة ١٩٣ هـ . (٧٨٦ ـ ٨٠٩ م)

وهذه احدى خطبه

الحمد لله الذي نحمده على نعمه . ونستعينه على طاعته . ونستنصره على اعدائه . ونؤمن به حقاً ونتوكل عليه مفوضين اليه . اوصيكم عباد الله بتقوى الله . فان في التقوى تكفير السيئات . وتضعيف الحسنات . وفوزاً بالجنة ونجاة من النار . وأحذركم يوماً تشخص فيه الابصار . وتبلى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاقي ويوم التنادي . يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد في حسنة . يوم الآزفة . إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع . يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . . . فاتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله . ثم توفى كل نفس ما كسبت . حصنوا ايمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة . . . واياكم والاماني فقد غرت واوردت وأوبقت كثيراً حتى اكذبتهم مناياهم .

فتناوشوا التوبة من مكان بعيد . وحيل بينهم وبين ما يشتهون . فرغب ربكم عن الأمثال والوعد وقدم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي جيلا فجيلا . وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت اياهم من بيوتكم ومن بين اظهركم لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم . فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الاسباب فاسلمتهم الى اعمالهم عند المواقف والحساب . ليجزي الذين اساءوا بما عملوا والذين احسنوا بالحسنى

خطبة للمأمون

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي : « ... ثم لما أفضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تمم ما بدأ به جده المنصور فاقبل على طلب العلم في مواضعه . وداخل ملوك الروم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة . فبعثوا اليه منها ما حضرهم . فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم أحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما امكن . ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها . فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم . علماً منه أن اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده »

بويع له بالخلافة في سنة ١٩٨ هـ وتوفي في بعض غزواته ٢١٨ هـ (٨١٣ ـ ٨٣٣ م)

وهذه احدى خطبه انشاها في الفطر

. . . الا وان يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة . يوم ختم به الله صيام شهر رمضان وافتتح به حج بيته الحرام . فجعله أول ايام شهور الحج وجعله معقباً لمفروض صيامكم ومتقبل قيامكم . فاطلبوا الى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم . فانه يقال : لا كثير مع ندم واستغفار . ولا قليل مع تماد واصرار . . . اتقوا الله عباد الله وبادروا الامر الذي لم يحضر الشك فيه أحداً

منكم . وهو الموت المكتوب عليكم . فانه لا يستقال بعده عثرة ولا تحظر قبله توبة . واعلموا انه لا شيء بعده الا فوقه ولا يعين على جرعه وعكره وكربه وعلى القبر وظلمته ووحشته وضيقه وهول مطلعه ومسألة ملكيه الا العمل الصالح الذي أمر الله به . فمن زلت عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته . وفاتته استقامته . ودعا من الرجعة ما لا يجاب اليه و بذل من الفدية ما لا يقبل منه . فالله الله . عباد الله . كونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها . فانه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم الا هذا الأجل المبسوط لكم . فاحذروا ما حذركم الله منه . واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه . لوضع موازينكم ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عبد مايضع في ميزانه مما يثقل به ومما يملي في صحيفته الحافظة لما عليه . . . ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها . فان كل ما بها يحذر منها و ينهي عنها . وكل مافيها يدعو الى غيرها . وأعظم ما رأته أعينكم من فجائعها و زوالها ذم الله لها والنهي عنها فانه يقول تبارك وتعالى : فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . وقال : انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد . فانتفعوا بمعرفتكم بها و باخبار الله عنها . واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله . فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها . وآثروا طاعة الله فيها وادركوا الجنة بما يتركون منها

خطبة فخر الدين بن لقمان

لما بويع بالخلافة للمستنصر بالله الخليفة العباسي المولود سنة ٥٨٨ والمتوفى سنة ٦٤٠ هـ (١١٩٣ - ١٢٤٢ م) صعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبراً فقرأ على الملك الظاهر تقليده السلطاني وكان هذا التقليد من انشائه

ومن هذا التقليد يرى القارىء ان الخلافة صارت وظيفة دينية . فكان الظاهر يمثل الحكومة والمستنصر يمثل الخلافة . واذا كان الظاهر قد حصل على سند شرعي لحكومته من المستنصر فان هذا ايضاً قد حصل على القوة التي يدعم بها خلافته من الظاهر . وقد كانت الخلافة العباسية أوشكت على الزوال فاحياها الظاهر واستخدم الخليفة اليه في مصر ويكاد الانسان يلمح ارتباكا من الخطيب في تمييزه بينهما ومعرفة التابع والمتبوع منهما . وفخر الدين هذا هو الذي اعتقل في بيته في المنصورة ملك الفرنسيين لويس التاسع . قال ابن لقمان :

الحمد لله الذي أضفى على الاسلام ملابس الشرف . وأظهر بهجة دره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف . وشيد ما وهى من علائه حتى انسى به ذكر من سلف . وقيض لنصره ملوكا اتفق عليهم من اختلف . أحمده على نعمه التي وقعت الاعين منها في الروض الأنف . والطافه التي وقف الشاكر عليها فليس له عنها منصرف

وبعد فأن اولى الاولياء بتقديم ذكره . وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً لتسطير مناقبه وبره . من سعى فاضحى سعيه للحمد متقدما . ودعا الى طاعته فاجاب من كان منجداً ومتهماً . وما بدت يد في المكرمات الا كان لها زنداً ومعصما . ولا استباح بسيفه حمى وغىً . الا اضرم منه ناراً وأجرى دماً . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني شرفه الله وأعلاه . ذكره الديوان العزيز المستنصري اعز

الله سلطانه تنويها بشريف قدره . واعترافا بصنيعه الذي تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد اقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان . وأذهبت ماكان لها من محاسن واحسان .وعتب دهرها المسيء لهـا فاعتب . وارضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب . فاعاد لها سلما بعد أن كان عليها حربا . وصرف اليها اهتمامه فرجع كل متضايق من امورها واسعاً رحباً . ومنح امير المؤمنين عند القدوم عليه حنواً وعطفاً . واظهر من الولاء رغبة في ثواب الله ما لا يخفى . وابدى من الاهتمام بامر الشريعة والبيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه . ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل وصوله اليه . ولكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه . ويخفف بها يوم القيامة حسابه . والسعيد من خفف من حسابه . فهذه منقبة أبى الله الا أن يخلدها في صحيفة صنعه . ومكرمة تضمنت لهذا البيت الشريف جمعه . بعـد ان حصل الاياس من جمعه . وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع . ويعترف انه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبـلاد الشامية . والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية . وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً . وفوض امر جندها ورعاياها اليك حتى اصبحت بالمكارم فرداً . ولا جعل منها بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون يستثنى . ولا جهـة من الجهات تعد في الاعلى ولا في الادنى فلاحظ امور الامة فقد اصبحت لها حاملا . وخلص نفسك من التبعات اليوم ففي غده تكون مسؤولا لا سائلا . ودع الاغترار بامر الدنيافما نال احد منها طائلا . وما رآها احد بعين الحق الا رآها حائلا زائلا . فالسعيد من قطع

منهـا آماله الموصولة . وقدم لنفسه زاد التقوى فتقدمة غير التقوى مردودة لامقبولة. وابسط يدك بالاحسان والعدل فقدامر الله بالعدل وحث على الاحسان . وكفر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه واثاما . وجعل يوما واحداً منها كعبادة العابد ستين عاما . وما سلك احد سبيل العدل الا واجتنى ثماره من الافنان . ورجع الامر بعد بعد تداعي اركانه وهو مشيد الاركان . وتحصن به حوادث زمانه . والسعيد من تحصن من حوادث الزمان . وكانت ايامه في الايام ابهى من الاعياد . واحلى من العقود اذا حلى بها عاطل الاجياد . وهذه الاقاليم المنوطة بك تحتاج الى نواب وحكام . واصحاب رأي من اصحاب السيوف والاقلام . فاذا استعنت باحد منهم في امورك فنقب عليه تنقيبا . واسأل عن احواله ففي يوم القيامة تكون عنه مسؤولا وبما اجترم مطلوبا . ولا تول منهم الا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا . وامرهم بالاناة في الامور والرفق . ومخالفة لهوى اذا ظهرت ادلة الحق . وان يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق . وأن لا يعاملوا أحداً على الاحسان والاساءة الا بما يستحق . وان يكونوا لمن تحت ايديهم من الرعايا اخوانا . وأن يوسعوهم براً واحسانا . وأن لا يستحلوا حرمانهم اذا استحل الزمان لهم حرمانا . فالمسلم أخو المسلم ولوكان اميراً عليه وسلطانا . والسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله . واستسنوا بسنته في تصرفاته واحواله . وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله . ومما يؤمر به أن يمحو ما أحدث من سيء السنن . وجدد من المظالم التي هي من أعظم المحن . وأن يشتري بابطالها المحامد رخيصة باغلى ثمن . ومهما جبي بها من الاموال فانما هي باقية

في الذمم حاصلة . واجياد الخزائن وان أضحت بها حالية فانما هي على الحقيقة منها عاطلة . وهل أشقى ممن احتقب اثماً . واكتسب بالمساعي الذميمة ذما . وجعل السواد الاعظم له يوم القيامة خصما . وتحمل ظلم الناس في ما صدر عنه من أعماله وقد خاب من حمل ظلماً . وحقيق بالمقام الشريف المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني أن تكون ظلامات الانام مردودة بعدله . وعزائمه تخفف ثقلا لا طاقة له بحمله . فقد أضحى على الاحسان قائدا . وصنعت له الايام ما لم تصنعه لغيره ممن تقدم من الملوك ان جاء اخرا . فاحمد الله على ان وصل الى جانبك امام هدى اوجبلك مزية التعظيم . ونبه الخلائق على ما افضل الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه امور يجب أن تلاحظ وترعى . وان يوالى عليها حمد الله . فان الحمد يجب عليها عقلا وشرعا . وقد تبين انك صرت في الامور أصلا وصار غيرك فرعا . ومما يجب ايضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذي اضحى على الامة فرضاً . وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضا . وقد وعد الله المجاهدين بالاجر العظيم . وأعد لهم عنده المقام الكريم . وبك صان الله حمى الاسلام من أن يبتذل . وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول . وسيفك أثر في قلوب الكافرين قروحا لا تندمل . وبك يرجى أن يرجع من الخلافة ما كان عليه في الايام الأول . فايقظ لنصرة الاسلام جفناً ما كان غافياً ولا هاجعا . وكن في مجاهدة أعداء الله اماماً متبوعا لا تابعاً . هداك الله الى مناهج الحق وما زلت مهتديا اليها والزمك المراشد فلا تحتاج الى تنبيه عليها . والله يمدك باسباب نصره . ويوزعك شكر نعمه . فان النعمة تستتم بشكره

خطبة ابن الزكي

لما فتح صلاح الدين الايوبي بيت المقدس في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٩ م) وكان قد مضى عليها نحو قرن وهي في ايدي الاوربيين اهتز العالم الاسلامي بأجمعه . ورحل كثير من العلماء وذوي الوجاهة في البلاد الاسلامية لرؤية الاحتفال بفتحها ودخولها في طاعة صلاح الدين

واختار صلاح الدين لخطبة يوم الجمعة الاول من فتح المدينة القاضي محي الدين محمد بني علي المعروف بابن الزكي فارتقى المنبر والقى هذه الخطبة التاريخية بين حشد من مسلمي جميع الاقطار العربية (وكانت ولادته في ٥٥٠ ووفاته في ٥٩٨ هـ بدمشق) . ونحن ننشر هذه الخطبة على غلو صاحبها في التعصب لكي يدرك القارىء منها ذهنية الناس في ذلك العهد وكيف كانوا يتطاحنون من أجل الدين ـ والدين لا يدعو الا الى التسامح . قال :

الحمد لله معز الأسلام بنصره . ومذل الشرك بقهره . ومصرف الأمور بامره . ومديم النعم بشكره . ومستدرج الكفار بمكره . الذي قدر الأيام دولا بعدله . وجعل العاقبة للمتقين بفضله . وافاء على عباده من ظله . وأظهر دينه على الدين كله . القاهر فوق عباده فلا يمانع . والظاهر على خليقته فلا ينازع . والآمر بما يشاء فلا يراجع . والحاكم بما يريد فما يدافع . احمده على اظفاره واظهاره واعزازه لأوليائه . ونصره لأنصاره . وتطهير بيته المقدس من ادناس الشرك وأوضاره . حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره . وأشهد أن لا اله الا الله وحده . لا شريك له الأحد الصمد . الذي لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفؤاً أحد . شهادة من طهر بالتوحيد قلبه . وارضى به ربه . وأشهد ان محمداً عبده ورسوله . رافع الشك ومدحض الشرك وماحق الأفك . الذي اسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى . وعرج به منه

الى السموات العلى الى سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى ما زاغ البصر وما طغى . صلى الله عليه وعلى خليفته ابي بكر الصديق السابق الى الايمان . وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان . وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن . وعلى أمير المؤمنين علي بن ابي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان. ايها الناس . ابشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على ايديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة . وردها الى مقرها من الاسلام . بعد ابتذالها في ايدي المشركين قريباً من مائة عام . وتطهير هذا البيت الذي اذن الله ان يرفع ويذكر فيه اسمه . واماطة الشرك عن طرقه . بعد ان امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه . ورفع قواعده بالتوحيد . فانه بنى عليه وشيد بنيانه بالتمجيد . فانه اسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه . فهو موطن ابيكم ابراهيم. ومعراج نبيكم محمد عليه السلام وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الأسلام . وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومدفن الرسل ومهبط الوحي . ومنزل به ينزل الأمر والنهي. وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر . وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين . وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين . وهو البلد الذي بعث اليه الله عبده ورسوله وكلمته التي القاها الى مريم . وروحه عيسى الذي كرمه برسالته . وشرفه بنبوته ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته . فقال تعالى لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون . كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً .

ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذن لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض . سبحان الله عما يصفون . لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم (الى آخر الآيات من المائدة) .
وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين. لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا اليه . ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه .
فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده . واصطفاه من سكان بلاده . لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار . ولا يباريكم في شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على ايديكم من المعجزات النبوية والوقعات البدرية والعزمات الصديقية والفتوحات العمرية والجيوش العثمانية والفتكات العلوية ما جددتم به للاسلام ايام القادسية والملاحم اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية .
فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم افضل الجزاء . وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء . وتقبل منكم ما تقربتم به اليه من اهراق الدماء . وأثابكم الجنة فهي دار السعداء . فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها . وقوموا لله تعالى بواجب شكرها فله المنة عليكم بتخصيصكم لهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة .
فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء . وتبلجت بانواره وجوه الظلماء . وابتهج به الملائكة المقربون . وقرت به عيون الانبياء والمرسلين . فمن عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح على يديه بيت المقدس في آخر الزمان . والجند الذي يقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الايمان . فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله . وأن تكون التهاني لأهل الخضراء اكثر من التهاني لأهل الغبراء . اليس هو البيت الذي ذكره الله

في كتابه . ونص عليه في محكم خطابه . فقال تعالى سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى . أليس هو البيت الذي عظمته الملل . وأثنت عليه الرسل . وتليت فيه الكتب الاربعة المنزلة من الله عز وجل . أليس هو البيت الذي امسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب . وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب . أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يامر قومه باستنقاذه . فلم يجبه الا رجلان . وغضب الله عليهم لأجله فالتاهم في التيه عقوبة للعصيان . فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو اسرائيل . وقد فضلت على العالمين . ووفقكم لما خذل فيه امم كانت قبلكم من الأمم الماضين . وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى . وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى . فليهنكم ان الله قد ذكركم به في من عنده . وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده . وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتمجيد . وما أمطتم عن طرقهم فيه من اذى الشرك والتثليث والاعتقاد الفاجر الخبيث . فالآن تستغفر لكم املاك السموات . وتصلي عليكم الصلوات المباركات . فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم . واحرسوا هذه النعمة عندكم . بتقوى الله التي من تمسك بها سلم . ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم . واحذروا من اتباع الهوى ومواقعة الردى . ورجوع القهقرى والنكول عن العدا . وخذوا في انتهاز الفرصة وازالة ما بقي من الغصة . وجاهدوا في الله حق جهاده . وبيعوا عباد الله انفسكم في رضاه اذ جعلكم من خير عباده . واياكم أن يستزلكم الشيطان . او يتداخلكم

الطغيان فيخيل لكم ان هـذا النصر بسيوفكم الحداد وخيولكم الجياد وبجلادكم في مواطن الجلاد . لا والله ما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم . فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل . وخصكم بنصره المبين . واعلق ايديكم بحبله المتين . ان تقترفوا كبيراً من مناهيه وان تأتوا عظيما من معاصيه . فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا . وكالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها . فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين . والجهاد . الجهاد . فهو من أفضل عباداتكم واشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم . احفظوا الله يحفظكم . اذكروا الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا في حسم الداء وقلع شأفة الاعداء . وطهروا بقية الارض من هذه الانجاس التي اغضبت الله ورسوله . واقطعوا فروع الكفر واجتثوا اصوله . فقد نادت الايام بالثارات الاسلامية والملة المحمدية . الله اكبر . فتح الله ونصر . غلب الله وقهر . اذل الله من كفر . واعلموا رحمكم الله ان هذه فرصة فانتهزوها . وفريسة فناجزوها . وغنيمة فحوزوها . ومهمة فاخرجوا لها هممكم وابرزوها وسيروا اليها سرايا عزماتكم وجهزوها . فالامور باواخرها . والمكاسب بذخائرها . فقد اظفركم الله بهذا العدو المخذول . وهم مثلكم او يزيدون . فكيف وقد اضحى قبالة الواحد منهم منكم عشرون . وقد قال الله تعالى ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مايتين . وان يكن منكم ماية يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون . اعاننا الله واياكم على اتباع اوامره والازدجار بزواجره . وايدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده . ان ينصركم الله فلا غالب لكم . وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من

بعده . ان اشرف مقال يقال في مقام . وانفذ سهام تمرق عن قسي الكلام . وامضى قول تجل به الافهام . كلام الواحد الفرد العزيز العلام . قال الله تعالى واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون

(ثم قرأ سورة الحشر) ثم قال :

اللهم وادم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك . الشاكر لنعمتك . المعترف بموهبتك . سيفك القاطع وشهابك اللامع . والمحامي عن دينك المدافع . والذاب عن حرمك المانع . السيد الأجل الملك الناصر . جامع كلمة الايمان . وقامع عبدة الصلبان . صلاح الدنيا والدين . سلطان الاسلام والمسلمين . مطهر البيت المقدس . ابي المظفر يوسف بن ايوب محيي دولة امير المؤمنين . اللهم عم بدولته البسيطة . واجعل ملائكتك براياته محيطة . واحسن عن الدين الحنيفي جزاءه . واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه . اللهم ابق الاسلام مهجته . وق للايمان حوزته . وانشر في المشارق والمغارب دعوته . اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس . بعد ان ظنت الظنون وابتلى المؤمنون . فافتح على يديه داني الارض وقاصيها . وملكه صياصي الكفر ونواصيها . فلا تلقاه منهم كتيبة الا مزقها . ولا جماعة الا فرقها . ولا طائفة بعد طائفة الا الحقها بمن سبقها

اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه . وانفذ في المشارق والمغارب امره ونهيه . اللهم واصلح به اوساط الناس واطرافها وارجاء المملكة واكنافها . اللهم ذلل به معاطس الكفار . وارغم به انوف الفجار . وانشر ذوائب ملكه على الامصار . واثبت سرايا جنوده في سبل الاقطار . اللهم اثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم

الدين . واحفظه في بنيه وبني ابيه الملوك الميامين . واشدد عضده ببقائهم . واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما اجريت على يده في الاسلام هذه الحسنة . التي تبقى على الايام . وتتخلد على مر الشهور والاعوام . فارزقه الملك الابدي الذي لا ينفد في دار المتقين . واجب دعاءه في قوله رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان اعمل عملا صالحا ترضاه . وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين . اﻫ

خطبة لاديب اسحق

ولد اديب اسحق في سنة ١٨٥٦ وتوفي في سنة ١٨٨٥ فلم يكد يبلغ الثلاثين من العمر . « ومن احبته الآلهة مات صغيراً » . ومن يقرأ مخلفاته الادبية يجد انه لم يكن يعيش ببطء وانما كان يسرع في العيش كأنه كان يحس بقصر عمره فكان يقتني من التجارب الذهنية ـ وهي كل ثروة الاديب ـ في العام الواحد مالا يستطيع غيره ان يقتنيه في اعوام .

قال عنه الشيخ اسكندر العازار صديقه يصفه انه كان « راية في علم اللسان وآية في صناعة البيان وغاية في حب الانسان . وكان فتى لا كالفتيان . جريئا في الحق ما اخذته فيه لومة لائم وما رهب فيه وعيداً . . . عاش حر الضمير فكرا وقولا وعملا . ومات حر الضمير فكرا وقولا وعملا . نشأ وطنيا خالصا صحيحا وعاش جنديا لاشرف الاصول واسمى الغايات . وانفق في خدمتها من روحه ما كان ينفخ في القلم من الروح ... كان زهرة الادب في الشام وريحانة العرب في مصر . وكان للوطنية نصيرا وبالانسانية بشيرا ولاعدائها نذيراً »

وقد القى الخطبة التالية في جمعية زهرة الاداب وموضوعها التعصب والتساهل . قال :

لقد جرى لفظ التعصب على السنة اهل الانشاء العربي بمعنى الغلو في الدين والرأي الى حد التحامل على من خالفهما بشيء في ما يدين وما يرى . واجريت هاهنا لفظ التساهل بمعنى الاعتدال

في المذهب والمعتقد على ضد ذلك الغلو متابعة للافرنج في لفظهم المعبر عن هذا القصد (توليرانس)

ولا اجهل ان هذين الطرفين ـ لفظ التعصب ولفظ التساهل ـ غير وافيين بالمراد منهما اصطلاحا وان في ايلاء الاول معنى الغلو في الدين والرأي توسعا عظيما . وفي اشراب الثاني ضد ذلك المعنى خروجا عن الحد اللغوي . ولكن للاصطلاح حكما نافذا يسوق الالفاظ الى المعنى الغريب فتنقاد . فاذا مرت عليها الايام . وصقلتها الالسنة والاقلام . جاءت منطبقة عليه بلا الهام ولا ايهام

وحد التعصب عند أهل الحكمة العصرية غلو المرء في اعتقاد الصحة بما يراه . واغراقه في استنكار ما يكون على ضد ذلك الرأي حتى يحمله الاغراق والغلو على اقتياد الناس لرأيه بقوة ومنعهم من اظهار ما يعتقدون ذهابا مع الهوى في ادعاء الكمال لنفسه واثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق

وحد التساهل عندهم رضى المرء برأيه اعتقاد الصحة فيه واحترامه لرأي الغير كائناً ما كان رجوعا الى معاملة الناس بما يريد ان يعاملوه فهو على اثباته الصواب لما يراه لا يقطع بلزوم الخطا في رأي سواه . وعلى رغبته في تطرق رايه للاذهان . لا يمنع الناس من اظهار ما يعتقدون

فمن تبين هذين الحدين وكان بصيراً سليم العقل طليق الذهن من أسار الوهم حار لا شك في كثرة ما يراه من أهل التعصب على قلة من عرفه من المتساهلين . وعجب وحق له العجب من بني نوعه كيف يداخلهم التعصب في ما يعتقدون وما يرون . وقد عجزت افهامهم عن ادراك الكثير من اسرار هذا الوجود . وقام لهم في كل حركة

وكل سكنة من أفكارهم دليل على امتناع الكمال على الانسان وكان لهم في تعصب الاولين عبرة لو كانوا يعتبرون

الم يروا كيف تعاقبت المذاهب وتوالت الاراء . وتتابعت قضايا العلوم الانسانية معدودة في عصورها من الحقائق وفي ما يلي تلك العصور من الاوهام . ولا اذكر العقائد الدينية متسلسلة من بوذا الى زرادشت الى كونفوشيوس الى سائر دعاة الدين كراهة أن يتوهم فيَّ قصدها بالذات . بل حسبي الاشارة الى تعاقب الوهم والحقيقة والخطأ والصواب في قضايا العلم عبرة للمتعصبين

ألم يكن القول بسكون هاته الارض قضية مسلمة . وبدوران الشمس من حولها حقيقة معلومة . وبانقسام البسيطة سبعة أقاليم علماً يقينا . أولم يكن طب ابقراط الهاما . وفلسفة أرسطاليس كشفا . وتعبير ابن سيرين حتما . فماذا تقول عن الذين تعصبوا لهاته الاوهام على من كان في ريب منها فالزموه الصمت والخسف . وعاملوه بالشدة والعنف . حرصاً على ما يتوهمون من الحق والحق بريء منهم لو يعلمون ؟

ولقد رجعت الى المحفوظ من أخبار الامم حتى بلغت الحد الذي يدخل التاريخ منه في ظلمات الريب والخفاء . فما مر بي جيل من الناس . ولا حقبة من الزمان . الا رأيت من اثار التعصب في الدين والراي ما ينقبض له الصدر استنكافا . وتثور منه النفس استنكاراً . ثم عدت الى الفطرة الانسانية لاستكشاف العواطف الطبيعية . فرأيت فيها من السذاجة والسلامة ما ينطبق على حكم التساهل من كل الوجوه . فعلمت أن التعصب على قدم وجوده حادث طارىء على الانسان. تولد عن مفاسد الرياسة في الجماعات .

وتأصل بالعادة والتقليد حتى صار في النفوس من الملكات . يظهر ذلك لمن تدبر قدم التعصب في جنب خروجه عن الطباع . ويعلمه من تأمل احوال الرياسة في صدور هيئات الاجتماع

ولعلي اوجزت واجملت والامر محتاج الى الايضاح والتفصيل. فاقول :

قد اجتمعت آراء المفكرين على ان الرياسة قد حصلت بدأة بدء للمتموالين او الاقوياء وفي الخالين لم يأمن الرؤساء على سطوتهم ان تزول بفقد الثروة او انحطاط القوة. فالتمس النبهاء منهم تأييدها بما لا تؤثر فيه النوازل ولا يضعفه كرور الايام . فوضعوا للجماعات احكاماً ، كل رئيس وما توهم فيه المصلحة او ما رأى ميل قومه اليه . فرضي كل اناس مشربهم . وقالوا : هـذا هو الحق الذي لا ريب فيه . وقال غيرهم من الاقوال : بل الحق ما نحن عليـه فانتم في ضلال مبين . فوقعت بينهم الاحن . وشبت اعقابهم على العداوات . حتى قويت روابط الاوهام . فتقطعت صـلات الارحام . فصار من الفضيلة ان يقتل الانسان اخاه ان خالفه في ما يراه . وامتلأت رؤوس الخلق عناداً . فملأوا الارض فسادا. فعدت المظالم عدلا وسميت المذابح جهادا

ولا احاول استيعاب المفاسد والنوائب التي نشأت عن التعصب في الدين والرأي . فذلك تاريخ الحروب والفتن والغـارات والمهاجرات من صدر الاجتماع الانساني الى المائة السالفة في بلاد الغرب والى هـذه الايام في بلاد الشرق . بل الغرب على انتشار

العلوم فيه وحصول الحرية لاكثر ساكنيه لم يخل الى الآن من آثار ذلك الداء العياء

نعم . لا نرى فيه الآن افراداً وجماعات من النـاس يذوقون الوان العذاب ثم يقتلون صـبراً شهداء ما يعبدون كما وقع لأهل النصرانية في دولة الرومان . ولا نجد ألوفاً من السكان المستامنين يخرجون من ارضهم بالقوة او تهدر دماؤهم لاستمساكهم بما كان يعبد آباؤهم كما جرى لليهود في اسبانيا . ولا نبصر ديوان عقاب ونقمة يحكم بالتشهير والحرق والتعذيب والموت على من اتهم بالشك في رواية المجاذيب عن بعض النساء عن بعض الاطفال كما كان ديوان التفتيش في كثير من ممالك الافرنج . ولا نلقى مئات الوف من نبهاء الخلق الامناء الصادقين يبيتون في منازلهم ويؤخذون بالسيف تقتيلاً لمجرد انهم يفهمون من آي الكتاب خلاف ما يفهم غيرهم من النـاس كما حل بالبروتستانت عام ١٥٧٢ في بلاد الفرنسيس . ولا نجد ايضاً جماعات من الخلق لا يستطيعون النطق بما يعتقدون ولا الظهور بما يعبدون . ولا افراداً من الجماعة يعاقبون بالسجن او التبعيد لأنهم يأكلون البان حيوانهـم ، في زوايا اكواخهم ، يوم يأكل ساداتهم الوان الأسماك الشهية . ويشربون معتقة الخمور في غرف القصور

نعم . لا نرى كل ذلك في الغرب الآن ولا نكاد نبصره في الكثير من اقطاره ماخوذاً بما اوضح من رايه وما اشاع من مذهبه وان خالف رأي الاكثرين . ولكن هذا التساهل في الهيئات . ارسخ منه في الافراد الا الذين تطهروا من ادران التقليد وسلموا من علل الاوهام . وغالبوا الملكات الحاصلة عن العادات وترفعوا

الى مقام السذاجة الأعلى وقليل من هم

والا فما هـذا الذي نراه من التحامل على بقايا آل اسرائيل في بلاد الروس والالمان . وما ذلك الذي مر بنا من مظاهر الاحن بين الكاثوليك وغيرهم في تلك البلاد . وماذا الذي نسمع به الآن من الخلاف والشقاق بين الشيع المتباينة في فرنسا وايطاليـا وبلجيكا وغيرها من اعرق البلاد في التساهل والحرية

ألا أقص عليـكم اخواني شيئاً مما تبين من محاكمة المتهمين بالفتنة التي جرت منذ شهرين في بلدة منسولمين بوطن الفرنسيس:

تبين من تلك المحاكمة ان اصحاب المعدن في تلك البلدة (والبلدة عبارة عن المعدن والعاملين فيه) كانوا اذا رأوا من احد الفعلة فتوراً في العبادة ، او ضعفاً في العقيدة التي يعتقدون ، ضربوا عليه الغرامة اجرة يوم او يومين وما فوق . واذا ظهر عليـه انحلال العقيدة طردوه من المعمل رأساً أي حكموا عليه بالفاقة وعلى عياله بالجوع . واذا مات ذلك المنحل العقيدة فشيعه صاحب له من رفقاء اتعابه الى القبر . عاقبوا المشيع بمثل هـذا العقاب وهم هم في البلد الذي افتدى أهله بدمائهم حرية السعي وحرية الرأي وحرية القول . فما الظن بغيرهم من اهل سائر الاقطار . وما الظن بنا نحن الذين كان من نعم الله علينا ان وجدت بلادنا المقدسة مهبطاً للوحي ومقاماً للعقائد الدينية من عهـد موسى صلوات الله عليه الى هذه الايام

بل ما الظن بنا ونحن احرص الناس على تعاليم السلف الكرام في ما لا يمس جانب النفع الأدبي ولا يتصل بطرف الفائدة الحسية حتى ان معارف علمائنا في هذه الحقبة لتشاكل بالحرف معارف

آبائهم من ثلاثمائة عام وتنحط بالضعف عما كانت عليه معارفهم من الف عام . وما الظن بنا ومثلي متكلماً بهذا الموضوع في مثل هاته الجمعية الزاهرة ، يخاف معاذ الله ان لا يجد لديكم استحساناً . لا جرم انا أسعد خلق الله في أسعد بلاد الله . فالحمد لله ثم الحمد لله

وقد سبق القول في حد التساهل انه رضى المرء برأيه اعتقاد الصحة فيه مع احترامه لرأي سواه . وهذا وان كان من الواجبات البديهية . والقضايا المسلمة عند ذوي العرفان . الا انه لسوء الحظ كغيره من سائر الواجبات ترشد الحكمة اليه . ولكن تغلب الشهوة عليه . حتى لا يكاد يوجد في الانسان الا عند العجز عن مجاوزة حده . لمجاورة ضده . فهو كالحرية يشتاقها الانسان مرؤوساً . وينكرها رئيساً . وكالزهادة يتقبلها سقيما وينبذها معافىً سليماً . فلا يثبت على تغير الاحوال الا عند ذوي النفوس الكريمة والطباع القويمة وما هم بكثير

فلكم رأينا من فئة مستضعفين يطلبون التساهل ويدعون اليه بكل لسان يثبتون له الوجود من كل الوجوه . فلما أن قامت دولتهم . وقويت شوكتهم . وصار اليهم الامر والقوة . كانوا من الغلاة المتعصبين . وهذه تواريخ العقائد الدينية والمذاهب الفلسفية والطرائق السياسية في ما تعاقب عليها من القوة والضعف والقبول والرفض شاهدة بصحة ما أقول . لا يقف النظر على صفحة منها الا رأى المتساهل في ضعفه . متعصباً يوم قوته . والمتلاين في حال خسفه . متشدداً في دولته . ولذلك لم يرض الحكماء من التساهل بان يكون صادراً من اللسان مراعاة لاحكام الضرورة او من عاطفة القلب ميلاً الى المعاملة بالاحسان بل اوجبوا فيه الاعتقاد

بتحتمه على الانسان علما منهم بانه يكون في الحالة الاولى متعلق الوجود ببقاء تلك الضرورة . والضرورات قابلة الزوال . وفي الحالة الثانية يتوقف البقاء على وجود تلك العاطفة والعواطف لا تستقر على حال . ومثل هذا الواجب الادبي الحق لا ينبغي أن يناط بهاته الأسباب الواهية . وتلك العرى القريبة الانحلال . وانما اللازم فيه تقييده بمبدأ متين من الحق . وتأييده بعماد مكين من اليقين . بحيث يعلم مع مخالفيه في ما يضيرون من آرائهم . وما يعلنون من مذاهبهم . انه لا يفعل ذلك رهبة منهم ان كانوا أقوياء . ولا شفقة عليهم ان كانوا ضعفاء . ولكن قياما بواجب من العدل والحق

قال احد كتاب الفرنسيس في هذا الموضوع ما معناه :

« وجب التساهل على الانسان من ثلاث جهات : من جهة نفسه . ومن جهة ابناء جنسه . ومن جهة الحقيقة ـ والحقيقة هي الله »

فاما من جهة النفس فلأنه من واجباتنا الأدبية التماس العلم والحكمة في أي وعاء خرجا . واصلاح ما عسانا ان نكون عليه من الخطأ . وكيف يحصل لنا ذلك ان سددنا أفواه الناطقين ظلما واستبداداً . ولم نسمع ما يقولون لننظر في أقوالهم . فنتم آراءنا بارائهم . قال فيكتور هيكو .

كل انسان كتاب يكتب الله سطوره

ويقول العاجز :

وكذا البحث زناد قادح للحق نوره

كيف لا وفي أقوال أحقر النـاس وآراء اصغر الخلق عبرة وفائدة وعلم جديد للمتاملين

واما وجوب التساهل على الانسان من جهة حق الناس عليه فلان العدل الموجب للتكافؤ يلزمه بقبول ما يريد ان يقبله الناس منه سواء ولما كان اول واجباته الأدبية التماس الحق والصواب . وثانيها ايضاح ذلك الحق بالاقوال والاعمال كان من الظلم القبيح ان يمنع غيره من ابداء ما يظنه ذلك الغير صحيحا . ومن العسف المنكر ان يشوش عليه ما يلتمس من الحق بالاغتصاب او الارهاب المانعين من التفكير

وأما وجوب التساهل من الجهة الثالثة جهة الحقيقة الخالصة. فقد اثبته العقل ولم تنفه نصوص الأديان بل أيدته في مواضع لا تعد . قال ترتليانوس الكلامي : « ليس من البر ولا التقوى أن تسلب حرية الناس في أمور الدين فان الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يريد ان يعبد اضطراراً »

وقال يوستنيانوس القديس : « أشد ما يخالف الدين نكراً ان يحمل الناس عليه قهراً »

وفي : « لكم دينكم ولي دين » وفي : « لاتجادلوهم الا بالتي هي أحسن » بلاغ للمتبصرين

فالذين يلتمسون الزلفى الى الله بالوعيد والتهويل . والذين لا يريدون ان يعبد الا كما يريدون . والذين يحاولون رسم آرائهم في القلوب والجباه بالحديد والنار . كل هؤلاء يغضبون الله ويكفرون بالحق ولا يشعرون . فان الحقيقة ليست باجنبية ولا بعدوة لتلقى على كاهل المرء الزاماً . وانما نحن ضيوفها بالطبع فهي تقبل علينا وتقف لدينا لنطلبها عن رضى راغبين

وقال شيشرون خطيب الرومان : « انما نكون عبيد القانون لنصير بالقانون أحراراً »

وفي الحديث المأثور : « كن للحق عبداً فعبد الحق حر » وقول ذلك الخطيب الروماني ينطبق على ما نحن بصدده . فيقال فيه : يجب أن نكون احراراً لنخدم الحق كما يجب والحق هو الله

وهذا دعاء المتساهلين نجعله للمقام ختاماً : يا بديع الصفات . اله جميع الموجودات . ما عرفناك حق معرفتك . ولا اهتدينا بضيائك لحكمتك . ألهمنا في أمورنا رشدا . واسلك بنا سبيل الهدى . لنتعاون على احتمال النوائب الكثيرة . في هاته الحياة القصيرة . ونعلم ان الخلاف الذي بين وقاء اجسامنا الضعيفة . وبين لغاتنا القاصرة . و بين عاداتنا السخيفة . وبين أحكامنا الناقصة . وبين احوالنا المتباينة . في ما نراه على استوائها لديك . ان جميع هاته المميزات بين هاته الذرات . لا تكون من اسباب الاحن والعداوات . فتستوي عبادتك برطانة من لسان قديم مهجور . و بغيرها من لسان جديد مشهور . ولا يميز بين من يوقد الشمع نهاراً لدعائك . ومن يكتفي فيه بضياء سمائك . و بين من يلبس لذلك الذهب والحرير . ومن يستقبل سمائك باطمار الفقير . و يكون الذين ملكت ايمانهم قطعاً مدورة من بعض المعادن متمتعين بلا تيه بما يسمونه نعما . والذين استولوا على نتفة حقيرة من بقعة صغيرة منتفعين بلا كبر بما يحسبون ملكا مقيما . و يكون سائر الناس راضين بالموجود . غير حاسدين على المفقود . و يذكر ابناء الانسان انهم في الانسانية اخوان . فلا يمزق بعضهم بعضا عناداً . ولا يملأون الارض فساداً . تجليلا لك عما يقول الجاهلون .

وتنزيها لك عما يزعم المتعصبون . انك اعظم من أن تغضب . وأعز من ان ترضى . وأكرم من ان تعفو . واكبر من أن تسر . وأجل من أن تساد . تماثلت لديك الذوات وتساوت عندك الاشياء . وانت في الكل وللكل سواء . وقنا العثرة مع المتعصبين . واحشرنا في زمرة المتساهلين . امين

خطبة لمصطفى كامل

لما خمدت الحركة العرابية وخنق أنفاسها الانجليز سادت البلاد المصرية فترة من الخمول السياسي حتى قيضت الاقدار لمصطفى كامل ان ينبه الامة . فاستخدم لسانه وقلمه وماله في سبيل ايقاظ الامة . فكان خطيباً وصحفياً ومؤلفاً ومؤسساً للمدارس . ومات في شبابه لانه لم يضن بهذا الشباب في خدمة مصر

وكانت حياته موزعة بين جهدين : تحريك المصريين الى مناهضة الانجليز المحتلين لوطنهم والمطالبة بالاستقلال . وتحريك الامم الاجنبية الى ادراك مقدار العسف الذي ينزله الانجليز ببلاد مصر

فكان يخطب في القاهرة وباريس . وله رسائل تنشر في الاسكندرية وبرلين . وكان له صحف تدافع عن قضيتنا بالعربية واخرى تحاول ايقاظ ضمير الامة المحتلة بالانكليزية

فلئن فخرت ايطاليا بغريبالدي وتباهت المجر بكوشوت فلنزه نحن بمصطفى كامل

خطب في الاسكندرية في سنة ١٨٩٧ فقال :

سادتي وأبناء وطني الاعزاء

اني بفؤاد ملؤه الفرح والسرور أقف الليلة أمامكم متكلما عن شؤون الوطن المحبوب ومصالحه . واني لأقابل انعطافكم نحو اضعف خدمة البلاد بمزيد الحمد والشكران . واستميحكم العفو اذا قصرت في أداء هذا الواجب . فاني انما اسر بهذا الانعطاف وبهذه المظاهرات . لا لأنها موجهة لشخصي الضعيف بل لأنها

اكبر دليل علني على حياة الشعب المصري . وأقوى حجة تكذب دعوى القائلين بان مصر وطن لا وجود للوطنية فيه . وان ابناء وادي النيل يقدمون بانفسهم الى ألد أعدائهم وطنهم واقدس ميراث لابائهم واجدادهم

أجل . ايها السادة . انكم باجتماعكم اليوم هذا الاجتماع الوطني ترفعون كثيرا من مقام الوطنية المصرية وتخففون من آلام مصر العزيزة التي قاست وتقاسي أشد العذاب على مشهد منكم يا اعز بنيها ويا نخبة أنجابها . فكل اجتماع وطني تذكر فيه مصر ويطالب بحقوقها ويعلن أبناؤها اخلاصهم لها هو في الحقيقة مرهم لجراحها ودواء لدائها . فاذكروها ما استطعتم . فان في ذكراها ذكرى الامها وذكرى الآلام يجر حتماً الى ذكر عوامل الشفاء . اذكروها كما يذكر الولد الحنون امه الشفيقة وهي على سرير المرض والعناء . اذكروها بالامها وان كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شانها . اذكروها فانكم ما دمتم مقدرين لمصائبها عارفين بحقيقة الامها دام الامل وطيدا في سلامتها ودام الرجاء . اذكروها فمن المستحيل ان يرى العاقل النار في داره والداء في شخص امه ويهمل النار ويهمل الداء . ومن المستحيل كذلك أن يكون الوطن في خطر ونحن نيام . وأن يعمل الاجنبي لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل ولا حراك

القوا أيها السادة بانظاركم قليلا الى الامم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ويذود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن ابيه وامه بل هو يرضاهما ضحية للوطن ويرضى نفسه قبلهما قربانا يقدمها لاعلاء شأن بلاده . ويعد الموت لأجل الوطن حياة دونها

الحياة البشرية ووجوداً دونه كل وجود . فلم لا يكون المصري على هذا الطراز ووطنه أجمل الاوطان وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة .

اسألوا التاريخ أيها السادة ما واجب أمة دخل الانجليز ديارها خدعة وعملوا لامتلاكها وسلبها كل سلطة وكل قوة . يجبكم التاريخ ان واجب أمة هـذا شأنها أن تعمل بكل ما في استطاعتها ضد مغتصبها وأن تبذل في سبيل خلاص وطنها كل ما تمتلك من مال ورجال .

اجل . كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه . والعار واجب أن يزول . ولست أقصد بهذا الكلام أن أسألكم باسم الوطن اعلان ثورة دموية ضد محتل البلاد . كلا ثم كلا . ان أقل الناس ادراكاً لمصلحة مصر يعلم علم اليقين انها منافية لكل ثورة وكل هيجان . وانمـا أسألكم أن تعملوا بكل الوسائل السلمية على استرداد الحقوق المسلوبة منكم وأن تعملوا لأن تحكم البلاد بابناء البلاد . نعم اني أعلم ان الاحتلال قوي السلطة عظيم الرهبة شديد العقاب . وان العمل ضده موجب للعذاب مسبب للفقر والفاقة . ولكن في الرضى بالاحتلال الخيانة والعار . وفي العمل ضد الاحتلال الشرف والفخار

فياذوي النفوس الابية ويا ذوي الضمائر الحية . اطلبوا الشرف ولو مع الفقر . اخدموا الوطن ولو أسقطت على رؤسكم الصواعق . كونوا مع مصر ان سعيدة فسعداء وان تعيسة فتعساء . قولوا لعدوها في وجهه : أنت عدوٌ لنا . ولصديقها : انت صديق لنا . لا تحبوا

من يرميها بنبال الموت بل امنعوه عنها ان قدرتم . ثم ردوها في صدر راميها ان استطعتم . وان لم تستطيعوا فكونوا معها لا مع المعتدين

وان لمصر غير المحتلين أعداء آخرين هم آلات الاحتلال . آلات الفساد . فان ذكرتم الاعداء فاذكروا الخونة فهم ألد الاعداء . وأي الاعداء هم . اولئك الذين انكروا الوطن والوطنية. وائتمنوا على مصالح الامة فعرضوا بها للدمار . أولئك الذين أرتهم مصر فقابلوا برها بالسوء وصاروا اليوم في ايدي المحتلين ضد الوطن العزيز. آلات الدمار . آلات الخراب . أولئك الذين كلما صعدوا درجا من درجات المناصب نزلت نفوسهم دركا وفقدوا نصيباً من الشرف وسمو الاحساس . أولئك الذين يبيعون الوطن على مشهد من الامم ويسيرون بين الناس حاملين لواء الخيانة والعار . اولئك الذين اذا مد اليهم الوطن يد الاستغاثة مدوا اليه سيوفا ليقطعوا بها يده الشريفة

هؤلاء هم الخونة وهم أشد الاعداء ضرراً . ويعلم الله ان الدم الذي يجري في عروقهم هو دم فاسد ليس بالدم المصري الصادق . وانهم مهما ذاقوا من لذة الحياة الظاهرية فسينالهم العقاب اقسى العقاب ولو من أنفسهم متى حاسبوا ضمائرهم . نعم سيعاقب الخائنون على خيانتهم . فكم رأينا في التاريخ رجالا خانوا اوطانهم وساعدوا الاعداء على امتلاك بلادهم . فعوقبوا على خيانتهم لا من ابناء وطنهم فقط بل من نفس الاعداء الذين خدموهم وساعدوهم . هذه سنة الله في خلقه . يقتل القاتل عقابا على عمله . فكيف بمن يعتدي على امة باسرها بالخيانة ويعتدي عليها بالسلاح الذي سلمته اياه ليدافع به عنها

نعم سيعاقب الخائنون وسيحمل ابناؤهم من بعدهم علم الخيانة على رؤوسهم وسيبقون في التاريخ مثلا كبيراً للابناء والاعقاب

وان ذكرتم الاعداء فاذكروا المنافقين . فهم خونة تفننوا في أساليب الخيانة يظهرون امامكم بمظهر المخلصين وهم يدبرون مع الاعداء المكايد والدسائس . فهم ذوو وجهين وذوو لسانين فحاذروهم واعلنوا أمرهم ليخيب مسعاهم وتحبط أعمالهم

. . . أيها السادة . أعداء الوطن عديدون . ومصائب الوطن عديدة . و بديهي ان ازدياد الاعداء يزيد من واجبات الوطنيين المخلصين لبلادهم . فلا تظهر الوطنية الحقة الا في اوقات الخطر ولا تعرف الهمم العالية الا عند المصائب . وغني عن البيان ان الأمة باسرها كارهة للاحتلال . راغبة في الجلاء والحرية وقد أظهرت هـذه الرغبة في ظروف عديدة وجاهرت بها حيناً بعد حين . الا انها كسائر الأمم في حاجة لأن يرشدها ابناؤها المتعلمون ورجالها الخبيرون . ويسرني كما يسر كل مصري صادق ان الناشئة المصرية عارفة بواجباتها نحو الوطن العزيز . فهم أبناء الوطن وهم رجال المستقبل و بهم تحيا البلاد و بهم تقوم

ولكن هناك فئة من المصريين لاأنكر اخلاص رجالها للوطن العزيز . ولكن أنكر عليهم اليأس الذي يتظاهرون به في كل وقت وفي كل مكان . فهم ما عملوا ولا يعملون للبلاد عملا نافعا ولكنهم جعلوا اليـأس علة عدم العمل وعلة الكسل . فان سألتهم : لم لا تقومون بعمل عمومي نافع للبلاد . أجابوك : نحن يائسون من مستقبل الوطن معتقدون بظلمة الايام الآتية

فبالله كيف يستطيع طبيب أن يحكم على عليل بعدم الشفاء

قبل أن يفحص داءه ويعطيه الدواء . على اننا نرى الكثير من الاطباء لا ييأس أبداً من شفاء المريض حتى في آخر لحظة من حياته . فكيف ييأس رجال من بني مصر من مستقبل البلاد . وهم وان كانوا قد خبروا داء مصر فيعلم الله ويعلم الناس انهم الى اليوم ما قدموا لها الدواء . كيف نيأس من المستقبل والمستقبل بيد الله وحده . وكثيراً ما تأتي الحوادث بخلاف المنتظر وبغير حساب . ألم يكن الكثير من المصريين ومن غير المصريين في يأس من مستقبل الدولة العلية ويعتقدون انها على مقربة من الموت . فها هي اليوم قد ساعدتها الحوادث التي ساقها الأعداء مؤملين البطش بها . فظهرت بمظهر القوة والحياة . واصبحتم جميعاً فرحين بسلامتها معتقدين حسن مستقبلها

كيف نيأس من المستقبل وقد أرانا التاريخ أمما حكمها الأجانب قروناً طويلة ثم قامت بعد الذل والاسترقاق مطالبة بحقوقها وأخرجت الأعداء من ديارها واستردت حقوقها وحريتها

هي النفوس الصغيرة التي يخلق عندها الأمل بكلمة او بتلغراف. ثم يستولى عليها اليأس بكلمة او بتلغراف . أما النفوس العالية الكبيرة فيدوم فيها الأمل ما دام الدم في العروق وما دامت الحياة

وأي حياة ترضاها النفوس الشريفة مع اليأس . أيجمع المرء في جسم واحد الموت والحياة . اذ اليأس موت حقيقي وأي موت

كيف نيأس ونحن جميعاً عالمون بأن ما يظهر طويلا في حياة الافراد هو قصير في حياة الشعوب . فعشر من السنوات في حياة الانسان طويلة حقاً ولكنها في حياة الأمة قصيرة جداً : على انه اذا كان اليائسون معتقدين صحة افكارهم فعار عليهم أن يقوموا في

الامة بوظيفة تثبيط همم الآملين . والآملون في البلاد كثيرون بل الامة كلها مؤملة خيراً في المستقبل وان لم تظهر الى الآن أعمال الآملين فستظهر بعد قليل وسترى الأمة المصرية وأمم العالم أجمع ان للوطن المصري أبناء مخلصين يقدرون الوطنية قدرها ويعرفون لمصر حقوقها ولا يخافون الاحتلال وقوته بل يجاهدون في سبيل خلاص البلاد منه اشد الجهاد وأحسنه . ولا غرو فان سبل خدم الوطن عديدة وان اهمها اعلان الحقيقة في كل بلد وفي كل زمان . فالحرية بنت الحقيقة وما انتشرت الحقيقة في امة الا وارتفعت كلمتها وعلا شأنها . فالحقيقة نور ساطع اذا انتشر اختفى الظلام والظلمة وانتشرت الحرية والعدل . فكما ان الافراد لا تسلب حقوقهم ولا يعتدي اللصوص على امتعتهم الا في ظلام الليل الحالك . فكذلك شأن الامم لا تسلب حقوقها ولا يعتدي العدو على املاكها الا اذا كانت الحقيقة مجهولة فيها وكانت هي عائشة في الجهل والظلام

فيا ايها المصريون المخلصون لمصر . انشروا الحقيقة في امتكم وفي الامم الاخرى . قولوا للمصري انه انسان من بني الانسان له حقوق الانسان تروه رجلا كرجال الامم الحرة يحمل لواء الوطن بكل قوة واقدام . قولوا للفلاح المصري انه خلق انسانا ككل انسان وان الله أعطاه في الحياة حقوق أكبر الافراد . وان له صوتاً لو رفعه سمع في الملأ الأعلى وانه ما خلق لان يعمل لغيره بل ليعمل لوطنه ولنفسه تروه عندئذ اشد الناس دفاعاً عن حقوق الامة والوطن . قولوا للامة المصرية انها امة كسائر الامم من اقدس حقوقها أن تحكم نفسها بنفسها وان لا تنفذ رغائب غيرها

وان تكون في بلادها عالية الكلمة قوية السلطة لا يرد لها رأي ولا تخالف لها أمر . هنالك تجدون الامة حية والشعب قوياً ولا ترون اولئك الذين يهزأون برغبة الشعب ورغبة نوابه ويسخرون من رغائب الامة ومن مطالبها

انشروا الحقيقة عن مسألة مصر في كل بلد وفي كل ناد . فليس المصريون وحدهم هم أصحاب الحقوق في مسألة مصر ضد المحتلين . بل معهم امم كثيرة من امم اوربا لها في مصر مصالح توافق مصالحهم ولا توافق مصالح المحتلين . وخير ما يعمل لمصلحة مصر هو ان تنضم الامم الاوربية الى الامة المصرية ضد الاحتلال الانجليزي ففي ذلك الخلاص وفي ذلك السلام

ولسنا أيها السادة بانصار دولة دون دولة بل نحن أنصار الوطن المصري وطن الاباء والاجداد وموطن الابناء والاعقاب . فان ظهرت دولة من الدول بمظهر المحبة لمصر والميل لمساعدتها كنا أكبر أصدقائها وأعظم أنصارها . فمصلحة وطننا قبل كل مصلحة . وهي هي المصلحة الوطنية التي تفرض علينا ان نشكر من صميم فؤادنا الذين رفضوا من سياسيي اوربا العمل مع الانجليز ضد مصر والذين أوقفوا الانجليز عند حد الاحتلال في البلاد . وهي هي المصلحة الوطنية التي تفرض علينا ان نشكر كل رجل من اي امة كان يدافع عن حقوق وطننا ويساعدنا على استرداد حريتنا وحقوقنا الشرعية

واذا كان بعض الرجال المخلصين للوطن العزيز يخافون الظهور امام قوة الاحتلال بمظهر المجاهرين ضده ولا يستطيعون ان يقوموا أمام الامم مدافعين عن بلادهم مناضلين عن حقوق شعبهم .

فعليهم في مصر نفسها واجبات وطنية يضيق المقام عن عدها . ولكني أقف قليلا وأذكر منها بنوع خاص واجب تربية الأمة وتعليمها

نعم ان هذا الواجب أكبر واجب وطني والبلاد مطالبة بالقيام به . فقد أصبحت المدارس على خلاف رغائب الشعب وآماله . وأصبحت الأمة في حاجة الى مدارس أهلية ترشدها الى مصلحة البلاد الحقيقية وتعلمها ما للأمة من الحقوق وما عليها نحو الوطن من الواجبات

لم لا يقوم كبراء مصر ووزراؤها السالفون بامر تأسيس المدارس الاهلية وتربية الأمة . لم لا يعقدون الشركات لهذه الغاية ويخصصون ايامهم الاخيرة لهذا العمل الشريف . رأينا عظيما منهم قام بمسألة الاعانة العسكرية وأجهد نفسه في هذا الأمر وله من الأمة والوطن جزيل الشكر والثناء . فلم لا نراه يقوم مع الكبراء الاخرين بمسألة اعانة عمومية لتاسيس مدارس أهلية والبلاد في أشد حاجة اليها . يا أيها الكبراء ويا ايها العظماء ويا ايها الاغنياء . ما الفخار بالرتب والالقاب ولا بسكنى القصور العالية والتحدث بما كان وما ربما سيكون . بل الفخار كل الفخار في العمل اناء الليل وأطراف النهار لخدمة البلاد واعلاء شأنها . فما الحياة بايام تمر وسنين تكر بل بالعمل وبالخدمة الوطنية

وما الحيــاة باتقاس نرددها ان الحياة حياة الفكر والعمل

واذا كان رجل ضعيف الصوت مثلي يسأل السادة الامراء والسادة الاغنياء العمل في الشيخوخة والقيام في آخر العمر بتتويج خدمتهم الوطنية فذلك لأني أعتقد ان الكثير منهم قضى حياة

شريفة وخدم البلاد بصدق واخلاص . فهي هي البلاد بنفسها تسال خيرة رجالها على لسان أضعف أبنائها أن يبقوا مثلا طيباً للشبيبة والناشئين . وأن ينشروا في الأمة نور التربية ونور الحقيقة وأن يبثوا فيها روح الوطنية وروح الرجاء

نرى الكثيرين من الاغنياء يهتمون بأمر توظف أبنائهم ولا يرون الشرف الا في الوظائف . فمتى يسمعون أنين الوطن وشكايته من هذا الداء العضال . داء السعي وراء الوظائف

اتركوا الابناء معشر الاباء في الحياة الحرة . اتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم في غير دائرة الوظائف . اتركوهم أحرارا غير مقيدين بقيود الرواتب . ابعثوا بهم الى الخارج ليدرسوا التجارة والصناعة ويؤسسوا في البلاد المعامل والمصانع تزدادوا بذلك شرفا وفخراً وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن مثوبة وأجراً . والا فان اهملت تربية الامة وبقي الكبراء منعكفين في ادارة شؤونهم الخاصة واستمر الاباء يلقون بالابناء الى مهاوي التوظف في الوظائف وبتميت التجارة والصناعة في كساد ودامت الامة في حاجة الى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها . دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر (انتهت باختصار)

خطبة لسعد زغلول باشا

ليس في مصر اسم أجرى على اللسان تعرفه المرأة في خدرها ويهتف به الطفل ويشيد به الشباب من اسم سعد زغلول . فهو الآن بطل الوطنية المصرية غير مدافع. صلب العود قوي الشكيمة. عجمه الانجليز فاستخشنوه فلفظوه الى أقاصي أفريقيا في جزيرة سيشل . فعاد أخشن ما كان موفور الكرامة مرفوع الرأس

عدت على جسمه عوادي الشيخوخة فاحنى ظهره عبء سبعة عقود . ولكنه اغتصب من هذه الشيخوخة العادية تاجا من الشعر الابيض زاده جلالا وجمالا فى عين الامة

له عزائم الشباب لان في قلبه فتوة الشباب . يفكر تفكير الفيلسوف لان الطبيعة حابته برأس كبير كما حاباه الدهر بتجارب لا عداد لها فكان محرراً وكان ثائراً وكان محامياً وكان قاضياً وكان وزيراً

قال في سنة ١٩٢١ في فندق ماجستك بالاسكندرية :

يا سمو الامير . اخواني . ابنائي

اعذروني اذا أنا لم أقدر ان أخاطبكم كما أريد لأني تعب . اضناني التعب من هذه الاحتفالات الساهرة . تلك المظاهر الساحرة . هذا الاستقبال الذي لا نظير له . واني بكل قوتي احتج على قول حضرات أبنائي بأني انا وحدي الذي فعلت هذا الذي تمدحونني عليه . أحتج بكل قوتي لأني لست وحدي فيه . بل للأمة جمعاء أثر فيه

اريد في وسط هذه المظاهر الهاتفة أن أوجه شكري وثنائي الى الذين اشتركوا في تأسيس مجدنا وتوفير سعادتنا وانعاش آمالنا

أتوجه والخشوع يملأ جوارحي الى تلك الارواح الطاهرة ارواح اولئك الابطال الذين نادوا بالحق والحق منكر . ففاضت أرواحهم وألسنتهم تردد ذلك النداء . فاضت وقد شرفونا باقدامهم والزموا الكل باحترام مصر واسمها وبيضوا وجوهنا . والآن فليناموا هادئين فقد انبلج فجر الاستقلال مضمخاً بدمائهم . وخلفوا من بعدهم من يستحق ذلك الفداء . بيض الله برحمته أجداثهم وأسكنهم جنات العلا وأرضى عن اعمالنا أرواحهم وأراحهم بتحقيق آمالنا

لله در الشبيبة ما فعلت . فأنها قد فتحت ما ضمت صدورها من كنوز الفتوة . وملأت قلب البلاد عزة وحماسة وملأت رؤوسها حكمة وملأت حركاتها نظاما . تلك الشبيبة التي هي عماد الحركة الحاضرة ومبعث انوارها الساطعة . أشكرها شكراً جزيلا . وأرتاح جداً لأن المستقبل سيكون بيدها وهي يد ماهرة

وأشكر العلماء والقسس الذين باتحادهم ابطلوا حجة في يد الخصوم طالما اتخذوها سلاحا قاطعاً . أزالوا الفوارق وأثبتوا ان الديانات واحدة تأمر بالدفاع عن الوطن . وانه ليس لها تأثير الا في عبادة الخالق جل وعلا . أما في الوطن فالكل سواء

وأشكر أيضاً الامراء الذين حملهم ما ورثوه عن آبائهم من المجد والفخار أن ينزلوا الى صفوفنا و ينضموا الى التاجر والصانع والزارع والعامل وكل من يخفي تحت تلك الثياب الزرقاء والبيضاء نفساً كريمة وقلباً أبيا . انضموا الى هذه الصفوف لأجل أن يستحقوا بعنوان آخر ذلك المجد الذي ورثوه عن الاباء

فشكراً لهم ثم شكراً . والحق ان كل انسان من المصريين قد قام بالواجب عليه . وكل نافس أخاه في القيام بهذا الواجب وزاد عليه ليكون ممتازاً على اقرانه بشيء في خدمة الوطن العزيز . فكلكم شاكر وكلكم مشكور . ومن مجموع هـذه المساعي سارت قضيتنا الى هذه النقطة الحاضرة . فاننا لما قلنا ان الحماية لاغية أعلنوا اليوم هم انها ليست باقية وأظهروا استعدادهم لاستبدالها بعلاقة اخرى راضية . والفضل في هذا الفرق العظيم لسعيكم لا لسعيي والتمسك بالمبادىء السامية . فاهناوا بما نلتم واثبتوا حتى تفوزوا بالاماني الباقية

خطبة اخرى لسعد زغلول باشا

القاها في كلية الازهر بالقاهرة بين الطلبة في ابريل سنة ١٩٢١

جئت اليوم لأؤدي في هـذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة . ولأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة . تلقيت فيه مبدأ الاستقلال لأن طريقته في التعليم تربي ملكة في النفوس . فالتلميذ يختار شيخه والاستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه ومتأهل له يوجه كل منهم اليه الاسئلة التي يراها . فان اجاب الاستاذ وخرج ناجحاً من هـذا الامتحان كان أهلا لأن يجلس مجلس التدريس . وهذه الطريقة من الاستقلال التي تسمى الآن خللا في النظام جعلتني أتحول من مالـكي الى شافعي حيث وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفأ من غيرهم . ولقد كان للازهريين في الحركة الحاضرة فضل كبير عا التقوه من الخطب وما بثوا من الافكار والمبادىء النافعة

*

الجزء الثاني

عيون الخطب الافرنجية

خطبة برقليس

كان برقليس (٤٩٥ — ٤٢٩ ق . م .) من خطباء اثينا وأحد رجالاتها المعدودين المحبوبين عند جهور السكان . وهذه الخطبة القاها في السنة الاولى من الحرب البلوبونيزية رثاء للجنود الذين ماتوا في هذه الحرب سنة ٤٣١.ق.م

اننا سعداء بنظام حكومي لسنا نحتاج به الى ان نحسد جيراننا لما عندهم من القوانين لأنه نموذج يحتذي به الآخرون بينما هو اصيل في اثينا . وهذا النظام الموكل تنفيذه الى جميع الأمة وليس الى عدد قليل منها يسمى الديمقراطية . فمهما اختلف كل فرد منا عن الآخر في شؤونه الخاصة فنحن سواء في التمتع بمزايا قوانيننا ونزداد مزايا بمقدار تفوقنا . وشرف الاعجاب ليس مقصورا على أسرة واحدة بل للجميع أن يحصلوا عليه باستحقاقهم الشخصي . ولا يقعد الفقر بأحد يبغي خدمة بلاده و يستطيع هذه الخدمة فينال الشهرة بعد الخمول . فلكل منا الحق في دخول وظائف الحكومة دون أن تعترضه عقبة . ولنا أن نعيش حياتنا الشخصية في تبادل الحب دون ان تنالنا شبهة . ولسنا نغضب من جارنا اذا اتبع ميوله ولسنا نستاء منه ذلك الاستياء الذي وان لم ينزل به عقاباً فأنه يحدث له الماً . فنحن احرار في حياتنا الشخصية ولكننا لا نجرا مهما كانت البواعث على مغاضبة الجمهور لما نحمل في صدورنا من احترام الحكام والقوانين . وبخاصة تلك القوانين المدونة التي يقصد منها التفريج عن المظلوم وتلك التي لم تدون والتي تعود مخالفتها بالعار والفضيحة على من يخالفها

وقد هيأت لنا قوانيننا أوقات فراغ نمتع فيها عقولنا برؤية الملاهي العمومية ومشاهد التضحية طول العام وهي تؤدى بأبهة ورشاقة لا تبقيان في قلوب الناظرين محلا للهم أو الغم . وقد صارت عظمة اثينا مدينتنا هذه سبباً في جلب جميع حاصلات الأرض باجمعها اليها فنحن نتمتع باطايب بلادنا كما نتمتع باطايب سائر بلاد العالم

ولسنا في حاجة الى شواهد تثبت اننا نستحق هذه المكانة . فان لنا حججاً قوية واضحة على ذلك وهي موضع اعجاب العصور الحاضرة والمستقبلة . فلسنا في حاجة الى شاعر مثل هوميروس لكي يتغنى بمديحنا كما أننا لسنا في حاجة الى شاعر آخر لكي يزين تاريخنا بعقود القريض لأن الرأي في مآثرنا لا يكون عندئذ رأياً صحيحاً نزيهاً . فقد فتحت اساطيلنا كافة البحار وقد اخترقت جيوشنا جميع الأرضين وتركت وراءها آثاراً ابدية لعداوتنا او صداقتنا

هذه هي الدولة التي دافع عنها هؤلاءِ الجنود الذين قضت عليهم بسالتهم والذين استهانوا بحياتهم فقاتلوا قتال الشجعان وماتوا موت البسالة . واني مقتنع بان الذين لم يقتلوا على قدم الاستعداد متأهبون لأن يبذلوا نفوسهم في هذا السبيل . ولهذا السبب تبسطت في بيان المزايا الوطنية لكي ابرهن لكم بأوضح ما يمكن اننا في حربنا الراهنة نخاطر باكثر مما تخاطر به امة ليس لها هذه المزايا الوطنية الثمينة ولكي ابين لكم مقدار ما يستحقه هؤلاء الجنود من الشكر والحمد اللذين قدمناهما لهم . وهذا الاحتفال الذي تحتفل به الدولة وتعلن فيه ثناءها وحمدها انما مرجعه الى بسالة هؤلاء الجنود ومن يماثلهم من

الرجال . وهذا الثناء قد يمكن أن نعده مبالغاً فيه اذا نحن أغدقناه على غير هؤلاء الجنود من الاثينيين . فهذا الموت الذي قد انتهوا اليه اكبر شاهد على جدارتهم . وعلينا دين يجب أن نوفيه بتكريم الرجال الذين ارصدوا حياتهم للقتال عن اوطانهم مهما كانوا أحط من غيرهم في مضمار الفضائل ما داموا قد حصلوا على فضيلة البسالة فان مآثرهم الاخيرة تمحو جميع مساوئهم السالفة لانها تشمل جمهور الامة بينما المساوىء لا تعدو العدد القليل . ولسنا نجهل انه لم يحجم احد من هؤلاء عن الخطر مؤثراً الملاذ التي تجتنى من عيشة السلام الوفيرة . كما انه لم يضن احد بحياته غروراً بالامل بأن الفاقة الراهنة قد تزول و يأتي مكانها الرخاء والسعة . كلا . انما كانت تستعر في قلوبهم شهوة واحدة . ألا وهي الانتقام من اعدائهم . لقد فروا من لومة الجبن وتصدروا لصدمة المعركة ثم حملوا وهم لا يروعهم روع وقد عقدت آمالهم النصر لهم فوقعوا وهكذا أدوا الواجب الذي يدين به كل شجاع لبلاده

واما أنتم الذين لم تقتلوا فشأنكم أن تصلوا الى الآلهة لكي يكون حظكم خيراً من حظ هؤلاء . ولكن عليكم أن تحتفظوا بهذه الروح وتلك الحماسة اللتين تقاتلون بهما عدوكم . ولست احتاج الى بيان فائدة هذا في خطابة مثل هذه فان أي انسان يتلهى بالالفاظ يستطيع ان يقول لكم ما تعرفونه انتم من قواعد مجاهدة العدو . ولكني أدعوكم الى أن تجعلوا عظمة أمتكم قبلة أفكاركم . فاذا أدركتم هذه العظمة فاذكروا أنها نيلت بالابطال الشجعان — رجال عرفوا واجبهم واستحوا من العار وكانوا اذا ما اخفقت جهودهم خافوا الفضيحة على بلادهم فلم يضنوا بشيء من شجاعتهم .

انهم اهدوا حياتهم الى الجمهور ونالوا منه الحمد الذي لا يبلى . ولكل منهم ضريح عظيم ـ ولا أعني ذلك الضريح الذي يضم رفاتهم الرميمة ـ وانما اعني ذلك الذي يضم شهرتهم وذكرهم. وهو ضريح يذكر كلما ذكر الشرف : فهذه الارض باجمعها ضريح عظماء الرجال

خطبة لديموستينيس

كان ديموستينيس (٣٨٢ ـ ٣٢٢ ق . م) خطيب اثينا بل زعيم خطبائها . وكان قبل أن عرفه جمهور اثينا رجلا خاملا ضعيف البنية خائر الصوت ليست لحركته لباقة ولا في لسانه طلاقة الخطيب . فلما اعتزم الخطابة « أخذ يقوي رئتيه وصوته بالصياح وهو يصعد في الجبال الوعرة أو كان يقف على شاطىء البحر فيرفع صوته فوق صخب الامواج . وتغلب على عاهة النطق بأن كان يمارس الكلام وفي فيه حصى . وتعلم أصول اللباقة ورشاقة الحركة بأن كان يقف امام مرآة وهو يخطب »

قال عنه فنيلون : « اننا لا نفكر في كلماته بل نفكر في الاشياء التي يقولها . فهو يبرق وهو يرعد بل هو سيل يجرف كل ما امامه . فلا نستطيع أن ننتقده او نعجب به لاننا قد فقدنا حكمنا على مشاعرنا »

وقد كانت مهمة ديموستينيس التي عاش من أجلها ومات في سبيلها ايقاظ ضمير الامة الاغريقية وتنبيهها الى الخطر الذي يحيق بها من فيلبس والد الاسكندر المقدوني الذي كان ينوي ضم بلاد الاغريق الى مملكته . وكان قد رشا خطباء اثينا لكي لا ينددوا باغراضه فسكتوا وابى ديموستينيس ان يرتشي ويخون وطنه . وقضى حياته وهو يحرض الاثينيين على مقاتلة فيلبس حتى دس له هذا الملك من يطارده . ففر الى احد المعابد وهناك تناول السم بيده ومات

قال يحرض الاثينيين على قتال فيلبس :

انْ بينكم أيها الإثينيون من يعتقد انه يمكنه أن يربك الخطيب بقوله : «فماذا نفعل اذن ؟» وعلى هذا السؤال اجيب : « لا تفعلوا

شيئاً مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شيء لم تفعلوه » وانه لجواب حق وصدق . ولكنني سأزيدكم ايضاحا ولعل أولئك الذين يسارعون الى السؤال يسارعون أيضاً الى العمل . فاذكروا أيها الاثينيون اولا انه من الحقائق التي لا مراء فيها ان فيلبس قد نكث عهودكم وأعلن الحرب عليكم . فدعونا اذن من التثالب عن هذا الموضوع . ثم اذكروا انه عدو اثينا الألد ــ عدوها الذي يكره أرضها وأسوارها بل يكره اولئك الذين يغتبطون منكم بأنهم قد نالوا حظوة عنده

فان أخشى ما يخشاه فيلبس وأمقت ما يمقته هو حريتنا . هو نظامنا الديمقراطي . فلكي يقضي على هذه الحرية وهـذا النظام يهيء فيلبس جميع شراكه ويدبر جميع تدابيره . او ليس يجري على مبدأ واحد في كل أعماله هذه ؟ انه يعرف تمام المعرفة انه لو أخضع بلاد الاغريق كافة وعمها بفتوحاته فانه يظل غير آمن عليها ما دامت ديمقراطيتكم صحيحة لم تمس . وهو يعرف انه لو أصابته هزيمة من تلك الهزائم التي تقدرها الاقدار لبني الانسان فان جميع هذه الامم التي قرنها عنوة الى نيره تسارع الى الانضواء اليكم . أفي العالم ظالم يجب رده ؟ هاكم أثينا . أفي العالم أمة مقهورة تحتاج الى رد حريتها اليها ؟ هاكم اثينا ما اسرعها الى الاسعاف . ففيم نعجب من فيلبس اذا كان لا يطيق صبراً على هـذه الحرية الاثينية التي تقف موقف الجاسوس ينظر الى شروره وآثامه ؟ فايقنوا أيها المواطنون انه عدوكم الذي لا هوادة عنده . وانه انما يعبي جيوشه ويهيء عدده وينصب اشراكه لكي يقاتل اثينا

فماذا عليكم ان تفعلوا باعتباركم رجالا عقلاء قد اقتنعتم بصحة

هذه الحقائق ؟ يجب عليكم ان تنفضوا عنكم هذا السبات القاتل. وان يتبرع كل منكم بنسبة ما يملك وان تطلبوا من حلفائكم ان يتبرعوا ثم تستعدوا للاحتفاظ بالجنود المسلحين حتى اذا كان فيلبس قد تهيأ لغزو الاغريق واخضاعهم يكون لديكم جيش تمدونهم به وتخلصونهم منه . ولا تخبروني عن المتاعب والنفقات التي يحتاجها هـذا العمل . فاني لست انكرها . ولكن اعتبروا الخطر الذي يتهددكم واعتبروا مبلغ ربحكم في ما اذا انضممتم للدفاع عن قضية الوطن الى سائر الاغريق منذ الآن . والحق انه لو اكد لكم احد الآلهة ان فيلبس لن ينالكم باذى اذا بقيتم وادعين في مقامكم لا تحفلون بما يعمل فاني اقول لكم والسماء تشهد علي انه من الهوان ومن الصغار ومما هو دون كرامة دولتكم ومجد آبائكم ان تضحوا مصالح وطن الاغريق باجمعه لكي تنالوا انتم الراحة لأنفسكم

أجل . انه لخير لي ان اهلك من ان اشير عليكم بهذا . فليفعل ذلك من يشأ غيري . واستمعوا لأقواله اذا اردتم . اما اذا كنتم تحسون مثل ما احس وترون كما ارى انه كلما امتدت فتوحات فيلبس كان في ذلك تقوية لعدونا وشداً لازره علينا حين نضطر عاجلا او آجلا الى مكافحته فلم ترددون واي اضطرار تنتظرون ؟ فهل هناك ما يخشاه الاحرار قدر ما يخشون سقوط الشرف ؟ فهل انتم في انتظار هذا ؟ الا انه قد وقع بنا الآن ما تنتظرونه وان عبئه ليكدنا ويبهظنا . لقد قلت« الآن » ولكن الحقيقة انه قد وقع منذ زمان ولازمنا وجيباً لوجه . الا ان هناك اضطراراً آخر قد احتفظ به لنا للمستقبل : هو اضطرار الرق والجلد والصفع . فهل

تنتظرون هـذه الاشياء . الا لا قدرت الالهة . ان النطق بهذه الكلمات مهانة وذل

خطبة لشيشرون

كان شيشرون (١٠٦ ق . م ـ ٤٣ ق . م .) في رومية بمقام ديموستينيس في أثينا . وكان أديباً وخطيباً معاً ولكن تبريزه كان أظهر في الخطابة . وقد ولد في وقت بدأت فيه الجمهورية في التدهور وأخذ قواد الجيش في الاستئثار بالسلطة . وأوشكت حرية الامة الرومانية ان تزول وان تسود الامبراطورية . وقد حدث في حياة شيشرون ان حاكم صقلية المدعو فرّس قد طغى وتجبر على الاهالي فشكوه الى رومية فكان شيشرون « المتهم العام » او النائب العمومي في القضية . فهيأ أركان الاتهام والتي سبع خطب في صددها فكانت من الفصاحة والبلاغة بحيث فر فرس قبل الحكم

وكان موضوع خطبه قبيل وفاته تحذير الرومانيين من انطونيوس القائد المشهور . فتخلص منه هذا بأن أرسل اليه من اغتاله

وقد ألقى الخطبة التالية وهو يتهم فرس بأنه جلد احد الرومانيين الذين تكفي نسبتهم الى مدينة رومية في حقهم في ان لا يجلدوا . قال :

وحدث ان فرس جاء في ذلك اليوم الى مسانا فتقدمت القضية له وقيل له ان الرجل روماني وأنه يشكو من انه قد حبس في محاجر سيراقوز وكيف انه عنـد ما كان يوشك أن ينزل الى السفينة اخذ يفوه بالفاظ الوعيد يهدد بها فرس فاعيد ثانيا واعتقل ريثما يقر قرار فرس على ما يريد ان يفعله معه

وعنـدئذ يشكر فرس هؤلاءِ الأشخاص الذين اعتقلوا هـذا الروماني ويحمدهم على نشـاطهم وحسن صنيعهم . ثم يأتي وهو ثائر بالشر والجنون «الى الفورم». عيناه تتقدحان والقسوة تبدو من وجهه والناس صامتون ينتظرون ما يشير به . ماذا يريد ان يفعل ؟

انه يأمر في الحال بان يقبض على الرجل وأن يجرد من ملابسه ويقيد في وسط الفورم ثم تعد الاسواط . ويصيح الرجل في تعسه وشقاوته بانه روماني وانه ايضاً معدود من اهل كوزا الحاصلة على الحقوق البلدية وانه قد خدم في الجيوش الرومانية تحت قيادة الفارس الروماني العظيم لوقيوس برينيس الذي يسكن في مدينة بانورماس وكان فرس يستطيع أن يساله عن صحة هذه الدعوى

ان فرس يقول انه كان قد تحقق من أن المتهم قد ارسله العبيد الآبقون الى صقلية لكي يكون عيناً يتجسس لهم . وهذه تهمة لم تقم عليها بينة وليس لها أصل بل ليس هناك أقل شبهة في وجودها في رأس أي انسان . ثم يأمر فرس ان يجلد الرجل بالسياط على جميع جوانب جسمه

رجل روماني يجلد بالسياط ايها القضاة في وسط الفورم ! وطول مدة هذا الجلد لا يتأوه الرجل ولا يسمع منه في وسط آلامه وبين ترقعة الاسواط سوى هاتين الكلمتين : « انا روماني »

كان هذا الرجل يتخيل انه بهاتين الكلمتين يستطيع ان يدفع عن نفسه هذه السياط ويقي نفسه عذاب الجلد . ولكن هذه الكلمات لم تقلل من عنف السياط ولم يجده رجاؤه واثباته انه روماني شيئاً اذ رأى بعد الجلد انه قد احضرت له خشبة لكي يصلب عليها ولم يكن قد رأى قبلا أن الاستبداد والجبروت يصلان الى هذا الحد

فواهاً على اسم الحرية الحلو . ووا أسفاً على حقوق الحرية الرومانية . . . أيها القضاة . هذه سلطتكم التي أسفنا لضياعها قد ردها اليكم الرومانيون فانظروا كيف يعامل روماني في مدينة من

مدن حلفائنا المتحدين معنا . يقيد ويجلد بالسياط في وسط الفورم
بامر رجل لم يحصل على مركزه الا بفضل الرومانيين

خبطة للقديس برنار

كان القرن الثاني عشر قرن الحروب الدينية الصليبية فكان التعصب رأس الفضائل عند المسلم والنصراني وكان هو الزاد الذي تغتذي به القوة المعنوية لكل من الفريقين . وكان القديس برنار رأس احد الاديرة في فرنسا وقد عاش من ١٠٩١ الى ١١٥٣ م . وكان اذا خطب امتلك قلوب سامعيه لما كان في كلماته من الاغراء وقوة الاقناع حتى « كانت الامهات يخفين اولادهن والزوجات ازواجهن والناس اصدقاءهم » عندما كان ينزل ببلدة ليخطب فيها خوفاً عليهم من اغراء الخطيب لهم . وكان جل خطبه في الحض على مقاتلة المسلمين واجلائهم عن سوريا وفلسطين . ويحسن ان يقارن القارىء بين هذه الخطبة وبين خطبة ابن الزكي التي القاها عند فتح صلاح الدين لبيت المقدس . ففي كلتا الخطبتين روح دينية هوجاء كلها بغض وكلها تعصب كأن الحب والتسامح منكران لا ينبغي لاحد ان يدين بهما

قال القديس برنار يحض الاوربيين على حرب المسلمين :

لا مناص لكم من أن تعرفوا أننا نعيش في عصر العقاب والدمار فان عدو البشر قد نفخ على جميع انحاء العالم هبوات الفساد فاننا لا نرى سوى الشرور التي لا يعاقب عليها احد . ولم يعد لقوانين الناس أو قوانين الدين قوة تكفي لوقف انحطاط الآداب او منع الاشرار من التغلب . فلقد تبوأت الهرطقة كراسي الحق وأرسل الله لعنته على الاماكن المقدسة . وأنتم أيها المستمعون لكلماتي سارعوا الى تهدئة غضب الله . ولكن لا تسألوه أن يستجيب لكم عن ظلامات كاذبة ولا تلبسوا الخيش وانما تابطوا تروسكم فان صليل السيوف وأخطار الحروب وكفاحها ومتاعبها هي الكفارات

للتي يطلبها الله منكم . فكفروا عن خطاياكم بما تنالونه من الانتصارات على الاعداء واجعلوا خلاص الاماكن المقدسة مكافأة لكم على توبتكم

من منكم لا يمتشق حسامه اذا قيل لكم أن العدو قد غزا بلادكم وأوطانكم وأرضكم وأنه قد سبى زوجاتكم و بناتكم وتناول بالرجس معابدكم ، ان هذه الرزايا واكبر منها قد وقعت باخوانكم و باسرة يسوع المسيح التي هي اسرتكم . فلم تترددون في حسم هذه الشرور ولم لا تنتقمون لهذه الفظائع ؟ هل تتركون هؤلاء الاعداء هادئين ينظرون ويتأملون ما يرتكبونه من المآثم في المسيحيين ؟ اذكروا أن انتصارهم سيكون موضوع حزن جميع العصور وسيكون للاجيال الحاضرة فضيحة أبدية لا تمحى . اجل . ان الله الحي قد كلفني ان أعلن لكم انه سيعاقب اولئك الذين لم ينصروه على أعدائه . فالى الحرب . هلموا اليها . وليؤنس قلوبكم غضب مقدس واجعلوا العالم المسيحي باجمعه يتجاوب هذه الكلمات التي فاه بها النبي : « ملعون من لا يلطخ سيفه بالدم » واذا كان الله يدعوكم الى الدفاع عن ميراثه فليس ذلك لأن يده قد فقدت قوتها . اليس في مقدوره أن يرسل اثنى عشر جيشاً من الملائكة أو يفوه بكلمة فيذهب اعداؤه هباء ؟ ولكن الله نظر في أبناء البشر وأراد ان يفتح لهم الطريق الى رحمته فقد أراكم تباشير صباح يوم الأمان بأن هيأ لكم الانتقام لمجده ولاسمه

ايها المجاهدون المسيحيون . ان الذي وهبكم حياته يطلب منكم حياتكم وهذه المعارك جديرة بكم لانكم تنالون المجد اذا انتصرتم والنفع اذا هلكتم . ايها الفرسان البواسل . يا حماة الصليب

الاجواد . اذكروا مثال آبائكم الذين فتحوا أورشليم والذين قد رقمت اسماؤهم في السماء فانبذوا ما يفنى واجمعوا ما لا يفنى وافتحوا ملكوتاً لا نهاية له

خطبة لبوسويه

كان بوسويه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤) من خطباء فرنسا المعدودين في عهد لويس الرابع عشر وكان قد نصب نفسه للدفاع عن الكاثوليكية فكانت أكثر خطبه مواعظ يلقيها من منابر الكنائس . وقد ارتد كثيرون من البروتستانت عن مذهبهم وعادوا الى الكنيسة الرومانية لقوة عارضته وفصاحة القائه . وله خطب عديدة مدونة . أفضلها ما ألقاه في رثاء امير كونده وكان قائداً فرنسياً شهيراً . والقطعة التالية مختارة من هذه الخطبة :

سار المرض في جسم امير كونده ولكن الموت كان قد أخفى اقترابه . فلما تحسنت حالته قليلاً وكان الدوق دانجيان الذي كان يوزع وقته بين واجباته نحو أبيه وواجباته نحو ملكه قد دعي الى البلاط ـ تغير عندئذ الامير لفراقه وهنا صرح له ايضاً بأن الموت قد اوشك ان ينزل به . الا انصتوا ايها المسيحيون وتعلموا كيف يجب ان تموتوا . او تعلموا بالحري ألا تنتظروا الساعة الاخيرة لكي تشرعوا في ان تعيشوا . أتنتظرون ان تبتدئوا الحياة عندما تقبض عليكم يد الموت الباردة في وقت لا تعرفون فيه اذا كنتم بين الاحياء او الاموات ؟ الا فاتقوا بالندم والتوبة هذه الساعة ـ ساعة القلق والظلام

لم يدهش الامير عندما أتى في سمعه هذا الحكم بل صمت خفنة ثم قال : « هذه مشيئتك يا ربي . فلتكن مشيئتك . فامنن علي

بنعمتك لكي أموت موتة هنية »

فماذا ترغبون في أكثر من ذلك ؟ ففي هـذه الصلاة القصيرة ترون الخضوع لمشيئة الله والاعتماد على عنايته والثقة بنعمته . وكل هذا تقوى وايمان

ومن هذه اللحظة صار كما كان شأنه في معامع القتال هادئا ضابطاً لنفسه لا يشغله سوى الاهتمام بجنوده . كذلك كانت هذه حالته في هذا الصراع الاخير . فلم يتراء له الموت هيكلا مخوفاً شاحباً ذابلا أكثر مما كان يتراءى له وهو في المعارك ينتظر الظفر . فبينما كانت التنهدات والتأوهات تتصاعد حوله كان هو يدأب على اصدار أوامره كأنه لم يكن هو المقصود بهذه التنهدات والتأوهات. وكان يأمرهم بالكف عن البكاء لا لانه كان يحزنه هذا البكاء بل لانه كان يعوقه عن تأدية ما يرغب اداءه . وفي هذا الوقت امتدت عنايته الى أقل خدمه خطراً . فانقل الجميع بهباته وشرفهم بتحف تذكارية وفعل ذلك بسخاء جدير بنبالته وبخدمتهم

وأسلم نفسه الى ذراعي الله وجعل ينتظر في هدوء خلاصه وكان يبتهل اليه الى ان أسلم أنفاسه الاخيرة . وهنا ينبغي ان ينفجر رثاؤنا ونستسلم للتفجع على فقد مثل هذا العظيم . ولكن اعزازاً للحق وخزياً لأولئك الذين يزدرونه يجب ان تصغوا الى هذه الشهادة التي ألقاها وهو يجود بنفسه . فقد قال له الكاهن الذي حضر للاعتراف انه اذا لم يكن قلبنا باجمعه مع الله يجب ان نسال الله ان يجعله كما يشاء وان نقول له كما قال داوود هذه الكلمات المؤثرة : « اللهم اخلق لي قلباً طاهراً »

فلما سمع الامير هذه الكلمات صمت وتأمل كأن الكاهن قد

أوحى اليه خاطراً عظيماً . ثم دعا الكاهن الذي فاه بهذه الكلمات وقال له: « اني ما شككت قط في خفايا الدين كما ذكر بعضهم ذلك عني »

أيها المسيحيون انه قال الصدق حين فاه بهذه الكلمات لانه كان في حال لم يكن مدينا فيه للعالم بشيء سوى الحق . وقد قال أيضاً : « وأنا الآن أقل شكا مما كنت . فعسى هذه الحقائق تتكشف وتتوضح في ذهني . نعم سنرى الله وجهاً لوجه » ثم جعل يكرر هذه العبارة الاخيرة باللغة اللاتينية كأن معناها قد لذّ له . ورآه المحدقون به وهو في هذه الحال الهنيئة فلم يضجروا من وقوفهم

فماذا كان حديث نفسه في هذا الوقت ؟ وأي نور جديد كان يلتمع فيها ؟ وما كان هذا الشعاع الفجائي الذي مزق سحب احساسه وشتت الظلام عنه بل بدد عنه هذه الظلال بل هذه الغوامض التي كانت تلبس الايمان ؟ وماذا جرى عندئذ لهذه الالقاب الفخمة التي نتباهى بها ؟

سرعان ما ننسى ونحن على حافة المجد وفي فجر هذا النور الجميل خيالات هذا العالم . وهذه الانتصارات اللامعة ما أكمدها في ذلك الوقت . وما أشد احتقارنا لامجاد هذا العالم وما أعظم اسفنا لان أعيننا قد عشيت بسنائها

فهلموا أيها الناس . بل هلموا أيها الامراء والاشراف . ويا من تحكمون على هذه الارض . ويا من تفتحون أبواب السماء للناس . وأخصكم انتم أيها الامراء والاميرات والنبلاء الذين هم من سلالة الملوك . انتم يا مصابيح فرنسا التي قد جللها السواد . أنتم الذين

قد غشاكم الحزن كما تغشى السحب الارض. تعالوا وانظروا ماذا بقي من هذا النبل العظيم ومن هذه العظمة العليا ومن هذا المجد الذي يعشي العيون

... تقدموا انتم يا من يتبعون طريق المجد ويسيرون اليه وقلوبهم ممتلئة حماسة ونفوسهم شجاعة وتعطشاً الى الحروب. هل رأيتم من كان أجدر منه بقيادتكم ؟ فاندبوا قائدكم وابكوه ولسان حالكم يقول : « لقد قادنا هـذا الرجل واقتحم بنا المعارك. ونلنا في قيادته الرتب والدرجات واقتدينا به حتى وصلنا الى أشرف الغايات في الحروب ولا تزال لظله رهبة ينال بها الظفر. وها هو ذا الآن اسمه يحمس النفوس. ويحذرها أيضا. حتى اذا فاجأها الموت الذي به تستريح من متاعبها تكون قد اعدت نفسها لسكناها الابدي. فهي لذلك في طاعتها لملك الارض يجب أن تخدم ملك السماء »

خطبة لفنيلون

كان فنيلون (١٦٥١ ـ ١٧١٥) مطراناً في فرنسا وكان مؤدب ابن لويس الرابع عشر وقد ألف له كتاب تليماك. وكان هـذا الـكتاب سبباً في حرمانه من منصبه لان لويس اعتقد انه وضعه لـكي ينتقد به بطريق التلويح الاحكام الاستبدادية التي كان يجري عليها هذا الملك

وكان خطيباً وواعظاً يجيد اذا تهيأ للخطبة ولا يأتي بالرذل اذا ارتجل. وفي الخطبة التالية يحاول فنيلون ان يثبت وجود الله :

لست افتح عيني دون أن أرى المهارة في كل شيء تكشفه لنا الطبيعة. فان لمحة واحدة تمكنني من ان أرى اليد التي صنعت كل هذه الاشياء. فان الذين قد تعودوا ان يفكروا في الحقائق

المجردة ويسيروا في تفكيرهم الى الاصول والمبادىء الاولى يرون الله في الطبيعة لانهم يرونه في عقولهم . ولكن كلما استقام هـذا الطريق حاد عنه دهماء الناس وعامتهم الذين يتبعون اخيلتهم

فاثبات وجود الله أمر بسيط ولهذه البساطة لا تستطيع الاذهان التي لم تألف التفكير الذهني ان تقف على حقيقته . وكلما وضح النهج الذي يمكن به معرفة الكائن الاعلى قلت العقول التي تسير في وضحه . على ان هنالك طريقة يمكن ان تكون اوفق الطرق لعامة الناس في اثبات وجود الله . فبها يمكن اولئك الذين لا يكثرون من الرياضة العقلية والذين هم اكثر الناس خضوعاً لحواسهم ان يعرفوا الله الذي تمثله أعماله في الطبيعة . فان الحكمة والقوة اللتين يظهرها الله في كل شيء صنعه تدلان على اسمه كما تعكس المرآة ظل الاشخاص لأولئك الذين لم يجدوا في أذهانهم ما يثبت وجوده. وهذه فلسفة عامية تخاطب بها الحواس. لكل انسان بعيد عن الهوى أن يدركها ويفهم مغزاها

فاذا فرضنا ان هنالك رجلا قد شغله شاغل عظيم فقد نرى انه يقضي أياما عديدة في غرفته مكباً على عمله دون ان ينظر الى ابعاد الغرفة او زخارفها او الصور المعلقة حواليه . وهذه الاشياء جميعها على الرغم من انها امام عينيه لا يراها ولا تترك أثراً في ذهنـه . وانما الناس يعيشون على هذا المثال . فكل شيء أمامهم يدل على وجود الله ولكنهم لا يرونه . فهو في العالم وهو الذي صنعه ولكن العالم يجهله . فهم يقضون حياتهـم دون أن يروه لأن الحياة قد فتنتهم وغشت على بصائرهم . وقد قال القديس اوغستين ان عجائب الكون تنقص قيمتها في نظرنا اذا تكررت امام اعيننا . وقال

شيشرون الروماني : « لما كنا مضطرين الى رؤية الاشياء نفسها كل يوم فان العقل والعين يعتادان رؤيتها . فلهذا لا نعجب ولا نحاول ان نكشف علل الحوادث التي نرى انها تحدث في طريقة واحدة لا تختلف . كأن جدة الشيء وما فيها من طلاوة هي التي تبعثنا على البحث ، أما عظمة الأشياء فلا تبعث فينا ذلك »

ولكن الطبيعة بأجمعها تثبت مهارة صانعها التي لا نهاية لها . وأقول ان الصدفة اي تتابع الحوادث تتابعاً لا ارادة فيه ليست هي أصل كل ما نرى. وحق علينا هنا ان نستشهد باحد أمثلة القدماء

من يستطيع ان يقول ان الياذة هوميروس لم يؤلفها شاعر فحل وانما هي حروف الهجاء وضعت معاً دون ان ترتب فحدث صدفة واتفاقاً انها رتبت كل منها في مكانه بحيث صار منها نظم مختلف القوافي ومعان تلون الاشياء باشرف الالوان وأجملها فنرى فيها الاشخاص كالطبيعة لكل منهم خلق و روح ؟ فمهما تمحل أي انسان فانه لن يستطيع ان يقنع احدا ذا حواس سليمة بان الالياذة ليس لها مؤلف وان الصدفة هي التي اوجدتها . فكيف يعتقد اذن انسان ذو عقل ان الكون وهو من حيث العمل أعجب من الالياذة ليس له صانع وانه وجد بالصدفة والاتفاق

خطبة لكرومويل

كان كرومويل (١٥٩٩ ـ ١٦٨٦) زعيم الثورة الانجليزية على الملك تشارلس الاول ملك انجلترا . وكان هـذا الملك قد نزع الى الاستبداد والغى البرلمان وأقفل أبوابه وطرد النواب . فألف كرومويل جيشاً وطارده حتى هزمه وأسره . وتألفت محكمة لمحاكمته فأدانته وحكمت عليه بالاعدام . وأعدم

فعلا وصار اسمه عبرة لكل خائن من الملوك يستهين بدستور بلاده

وصار كروميل حاكم البلاد ودعي باسم « المولى الحامي » . قال كارليل عن خطبه « انها تفوق ما يعتقده الانسان في مخالفتها للخطب وفي عدم جريها على أساليب الخطابة أو في ترتيب الافكار ترتيباً منطقياً . . . ولكن مضى زمن كان لهذه الخطب في انجلترا شأن لا يقل عن شأن خطب ديموستينيس المصقولة في أثينا »

وقد القى الخطبة التالية رداً على ما اقترحه عليه البعض من أن يلقب نفسه بلقب الملوكية . قال :

سأقول الآن شيئاً عن نفسي . واني أجهر بضميري وهو اني لست ممن يحفل بالالفاظ او الاسماء أو ما الى ذلك . وليس أمامي نهج واضح ولكن عندي كلمة الله التي آمل أن تكون معي على الدوام والتي هي قوام ضميري ومعول علمي ونبراس طريقي . واذا كان حقاً ان الناس قد تقتادهم العناية الالهيــة الى الطرق المظلمة فليس لأحد أن يعترض عليهم . إذ مَن من الناس يرضى أن يسير في الظلام ؟ ولكن لله تدابير فاذا شاء انسان أن يعزو الى العناية الالهية جنونه وعمى قلبه فعليه خطيئته . . . والحق أن عناية الله قد نبذت لقب الملوكية ولم يكن هذا عن نزق أو عن هوى طارئ من الامة . كلا . انما هو عن روية وتدبر لا يطلب من أمة كائنة من كانت اكثر منها . انه نتيجة حرب أهلية دامت عشر او اثنتي عشرة سنة سفك فيها كثير من الدماء . ولست أماري الآن في عدالة هذه الحرب ولست أحتاج الى أن أخبركم عن رأيي في ما لو عادت الحال التي دعت اليها . ولكن اذا كان هذا مما يماري فيه فما يقوله الانسان عنــد ما يجد ان الله في صرامة حكمه قد استاصل عائلة باكملها وأقصاهم عن البلاد لأسباب يعلمها هو جلت قدرته بل انه

ختم الحرب بأن استأصل أيضاً الاسم واللقب

اني أنا لم أفعل هذا ولم يفعله اولئك الذين طلبوا إلي أن أتقلد مقاليد الحكومة التي أرأسها الآن . فان البرلمان هو الذي فعل ذلك . وكانت لله بصيرة في قمع العائلة ومحو اللقب . وكما قلت لكم لقد محا البرلمان هذا اللقب ونبذه و بقي منبوذاً الى يومنا هذا ...

واني ارجو اليكم الا تظنوا اني أقول هذا برهاناً على شيء ما . كلا . ان الله أراد ان يجزي الشخص والعائلة ففعل بل محا اللقب أيضاً . والآن ماذا يقول انسان يرى حكم الله هذا و يتأمل فيه و يرى هذا اللقب معفرا في التراب ؟ اقول اني الآن في مثل هذا المقام . ان في هذا لعبرة ينفعل منها رجل ضعيف مثلي وقد تترك اثراً كبيراً في من هم أضعف مني . ولهذا فاني لا أبتغي أن أقيم ما هدمه الله ودفنه في التراب . كلا اني لن أبني أريحا مرة أخرى . . .

وليس عندي أزيد مما قلته . وقد أشرت اليكم في أول مقالي الى هذه النهاية التي انهيت اليكم بها عند ما أوضحت لكم الطريق الذي سأسلكه في هذه الخطبة . ويمكنني أن أقول انه ليس من مصلحتي ولا من مصلحة الخدمة التي أحمل اعباءها أن أدلي بجميع الحجج على عدم منفعة مقترحكم أو فائدته للقيام بتادية أعمالنا . أقول انه ليس من المناسب ان اجهر بجميع الافكار التي تختلجني عن نقطة الامن في هذا الموضوع ولكني ادعو الله أن يوفقكم الى ما فيه انفاذ ارادته . وهذا في الختام هو ما يمكنني أن أقوله عن نفسي

*

خطبة لمارات

زعماء الثورة الفرنسية أشبه شيء بقصابين منهم بادباء أو سياسيين . فديدنهم وهجيراهم القتل وسفك الدماء . وكان مارات (١٧٤٣ ـ ١٧٩٣) اكثر هؤلاء الزعماء حضاً للناس على التقتيل واعدام النفوس . وكان له شريكان في ارتكاب هذه المآثم باسم القانون وهما دانتون وروبسبيير . ولما ضج الناس من كثرة الدماء التي كان يلغ فيها مارات كثرت الشكوك حوله وقصدت اليه فتاة تدعى شرلوط كوردي فقتلته وهو يستنقع في الحمام

والخطبة التالية القاها دفاعاً عن نفسه وكان قد اتهم بجملة تهم وكان يخشى أن يحكم عليه بالاعدام . قال :

لقد كنت أخاف وأرتعد من حركات الشعب الحماسية والخالية من النظام عند ما رأيتها قد تعدت حدود الضرورة . ولكي لا تموت هذه الحركات موتاً أبدياً ثم لكي نتجنب ضرورة عودتها اقترحت ان يدير الشعب في هذه الحركات رجل عاقل عادل مشهور بتعلقه للحرية ويجعل الحرية العمومية غايتها العظمى . ولو ان الناس استطاعوا أن يقدروا الحكمة في هذا المقترح ولو انهم اصطنعوه برمته لاكتسحوا يوم فتح سجن الباستيل خمسمائة راس من المتآمرين . ولو انا فعلنا هذا لاستقرت الامور . ولهذا السبب عينه اقترحت جملة مرار ان نعين شخصاً ونمنحه السلطة المطلقة . والدليل على اني اردت أن أقيده بالمصلحة العامة هو اني اقترحت في أن يكون في طرف قدمه خرطوشة ولا يكون له من عمل سوى اطاحة رؤوس الخونة

لقد كان هذا رأيي وقد أوضحته لأخصائي ونشرته في جميع

كتاباتي وقد مهرت هذه الاقوال بتوقيعي ولست أستحي من ذلك واذا كنتم انتم لا تفهمون فتعساً لكم

انا نعيش في عصر ولما تنته فيه أيام القلق والاضطراب . وها نحن أولاء بازاء مائة الف وطني ذبحوا لانكم لم تستمعوا الى صوتي . وثم مائة الف أخرى سيقاسون الآلام ويوشك أن يحل بهم الدمار . واذكروا انه اذا تردد الشعب فلن يكون ثم طريق آخر للفوضى

لقد نشرت هذه الآراء بين الجمهور فاذا كانت مخطرة فليفندها المستنيرون بما لديهم من الادلة . أما عن شخصي فاني اصرح باني اكون أول من يسير على رأيهم وأقدم لهم بذلك البرهان القوي على اني أرغب في السلام والنظام وسيادة القوانين عند ما أقتنع بعدالتهم

هل تتهمونني بالطمع ؟ اني لا ازل للدفاع عن نفسي . افحصوا سلوكي واحكموا على ماضيّ . فاني لو أردت أن أصمت وأتاجر بهذا الصمت لصرت من ذوي الحظوة في البلاط . ثم ماذا كان حظي ؟ لقد دفنت نفسي في المطبقات وتعرضت لجميع الاخطار وقد علق فوق رأسي سيف مائة الف سفاك ووعظت الناس بالحق ورأسي على النطع . فليتحد أولئك الذين يخشون المستبدين معي ومع جميع الوطنيين الصادقين وعلينا ان نحث الجمعية الوطنية على التعجيل في اقرار القوانين التي تضمن للناس السعادة وبعد ذلك اذهب فرحا الى المشنقة

خطبة للامارتين

كان لامارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩) شاعراً وأديبا وسياسياً فرنسيا . وكان خطيب الجمهورية ينافح عنها ولما حدثت ثورة سنة ١٨٤٨ كان هو من العوامل التي أفادت في منع الغلو فسار بالناس في طريق وسط وكبح جماح المتطرفين والملوكيين . وفي الخطبة التالية يفسر معنى الثورة الفرنسية وما جناه الناس منها . قال :

فما هي اذن الثورة الفرنسية ؟ هل هي كما يقول عباد الازمنة الماضية فتنة أمة مضطربة لغير سبب تهدم في تشنجاتها الجنونية كنيستها وحكومتها الملوكية وطبقاتها الاجتماعية وقوميتها حتى لقد مزقت أيضاً خريطة اوربا ؟ كلا . لم تكن الثورة الفرنسية فتنة منكودة كما يزعمون لان هبوب الفتن الى خمود عاجل وهي لا تترك وراءها سوى الجثث والدمار . وليس من ينكر ان الثورة قد خلفت وراءها دماراً وآلات للاعدام . وهذه لها بمثابة وخز الضمير للانسان ولكنها قد خلفت أيضاً مذهباً وخلفت روحاً ستبقى وتعيش ما دام في الانسان ذهن يفكر

ولسنا نقول هذا تشيعاً لشيعة ولسنا نقصد الى تأليف شيعة . انما نكوّن رأياً وفي الرأي القوة والشرف والمناعة . فهل نحن لاجئون الى العنف والضغط والقتل في بدء جهادنا ؟ كلا . وعلينا ان نشكر آباءنا لذلك لانهم قد خلفوا لنا الحرية التي لا تفتقر الى سلاح لان سلاحها سلاح السلم تنشأ وترقى دون حاجة الى الغضب أو الشطط . ولهذا سنحوز النصر . ثقوا بذلك ، واذا سألتموني عن القوة الادبية التي سترغم الحكومة على النزول على

ارادة الامة لأجبتكم انها سيادة الافكار وملوكية الذهن وجمهورية الذكاء . أو اقول بكلمة واحدة انها الرأي — هذه القوة الحديثة التي لم يكن القدماء يعرفون اسمها

أيها السادة . لقد ولد الرأي العام يوم اخترع غوتنبرج الذي لقب بصانع العالم الجديد بواسطة الطباعة تلك الصلة التي لا نهاية لها بين الافكار والعقول الانسانية . وقوة الرأي هذه التي لا نكاد نفهمها ليست تحتاج في بسط سلطانها الى سمة الانتقام أو سيف العدل او الى آلة الاعدام . لان في يدها ميزان الافكار والمؤسسات والذهن البشري . ففي احدى كفتي ميزانها ستعيش مدة طويلة خرافات العقل البشري والاهواء التي تدعى لها الفوائد وحقوق الملوك المقدسة والتمايز في الحقوق بين الطبقات وعداء الدول وروح الفتح الحربي واتحاد الدين والحكومة اتحاداً فاسداً والرقابة على الافكار واسكات زعماء الشعب وتفشي الجهل بين سواد الامة والعمل في الحط من كرامتهم . اما في الكفة الاخرى فاننا سنضع أخف ما خلقه الله وأقله مادة نعني النور — ذلك النور الذي تفجر من الثورة الفرنسية عند ختام القرن الماضي ولا شك انه تفجر من بركان هو بركان الحق

خطبة لفكتور هيجو

كان فكتور هيجو (١٨٠٢ — ١٨٨٥) من اكبر القوى الادبية في فرنسا زاول الشعر فبذ الشعراء ومارس الخطابة فكان الثاني في حلبتها عند من يعدون ميرابو أولها في فرنسا . ونزع الى الشهرة والصيت بين العامة فمارس

السياسة وهجر الادب فنال مبتغاه وفقد الادب العالي رجلا من أهل الكفايات فيه ظهرت بوادر أدبه في قصة « التعساء »

وقد ألقى الخطبة التالية في سنة ١٧٧٨ بعد مرورماية سنة على وفاة الكاتب الشهير فولتير . قال :

منذ ماية سنة مات رجل . ومات خالداً مثقلا بالسنين وبالاعمال وبامجد التبعات واكبرها ألا وهي تبعة تنوير ضمير الانسان وتصحيحه . ومات تشيعه لعنات الماضي وبركات المستقبل وكلاهما من مفاخر المجد . مات بين هتاف اهل جيله وخلفهم وبين نعيب الماضي الذي لا يلين على اولئك الذين يجاهدونه . لقد كان اكبر من رجل . أجل انه كان عصراً . لقد أتم عمله وأدى الرسالة التي اختارته لها الارادة العليا التي تظهر في نظام القدر كما تظهر في نواميس الطبيعة . فان الاربعة والثمانين العام التي قضاها في هذا العالم كانت جسراً بين صعود الملوكية وبزوغ فجر الثورة فقد ولد في عصر لويس الرابع عشر ومات في حكم لويس السادس عشر . فسطع على مهده ضوء العرش العظيم كما انتشرت على كفنه الاشعة الاولى من الهوة السحيقة

فقد كانت ايام البلاط أعياداً وكانت فرساي زاهية وباريس في جهل وكان القضاة للتوحش الديني يحكمون بقتل الرجل المسن على الدواليب وبنزع لسان الطفل لأنه انشد احدى الاناشيد . ورأى فولتير هذه الهيئة النكدة النزقة وادرك جميع القوى التي عبثت عليه من البلاط والاشراف والممولين وهذا السواد الاعمى من الشعب وهذه المحاكم التي تذل الرعية وتستهل للراعي فتسحق وتتملق وتجثو امام الملك على رقاب الناس ثم هؤلاء القساوسة وهم

اخلاط مناكيد لا يعرفون سوى النفاق والتعصب فاعلن عليهم الحرب وشن غارته على هذا التآلف المكون من المظالم الاجتماعية وعلى هذا العالم القوي العظيم

فماذا كان سلاحه ؟ كان ذلك السلاح الذي هو اخف من الريح ولكن له قوة الصواعق اعنى به القلم . فجاهد فولتير بهذا السلاح وظفر به . فلتحيي هذه الذكرى . لقد انتصر وهو فرد يحارب جموعا متألبة . وكانت حربه حرباً بين العقل والمادة بل بين الرأي والهوى أثيرت دفاعا عن المحقين على المبطلين وعن المستضعفين على الظلمة الجائرين وكانت حرب الدفاع عن الخير والرحمة . وكانت في قلبه رقة النساء وغضب الأبطال . وكان هو عقلا كبيراً وقلباً عظيما . هزم القوانين القديمة ودمغ العقائد العتيقة

انه انتصر على اشراف الاقطاعات وعلى قضاة القوط وقساوسة الرومان ورفع العامة الرعاع الى مقام الشعب . وكان يعلم وكان ينشر السلم وكان ينشر المدنية . وكان لا يعبأ بالتهديد أو السباب او الاضطهاد أو مقالة السوء أو النفي . وكانت ابتسامته تدمغ العنف وكان يهزم الاستبداد بتهكمه و يعبث بالمغرورين و يثبت امام المكابرين و يتغلب على الجهالة بالحق

خطبة لكوشوت

في سنة ١٨٤٨ شملت اوربا اوكادت تشملها ثورة تختلف نزعة ومبادىء باختلاف المكان . فكانت في هنغاريا تنزع نحو استقلال البلاد . فاخذ المجريون في الاتحاد وكافحوا الاستبداد مكافحة الابطال واوشكوا أن يتغلبوا على النمسويين . فما هو أن احست روسيا بنهوضهم وقرب انفكاكهم من قيد العبودية حتى خشيت على بنائها أن يتهدم في أثر هذه الحركة التي تصير عندئذ

مثالا وقدوة للشعوب المغلوبة على أمرها في دولة القياصرة . فارسلت جموعها الى النمسا وشدت ازرها فاخمدت ثورة المجر . وعادت هنغاريا في قيد الاستعباد ولكن لم تمض عشرون سنة حتى نالت استقلالها وصارت شريكة في مملكة « النمسا والمجر »

وكان زعيم الثورة في سنة ١٨٤٨ رجل يدعى كوشوث وقف حياته على استقلال بلاده وأرصد جهوده لتخليصها من نير النمسويين . فلما تألب الاستبداد وعقدالروسيون والنمسويون الخناصرعلى خنق حرية المجر وغمروهم بجيوشها فر الى تركيا . فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار فقبض عليه الاتراك وسجنوه بدسائس السياسة النمسوية . وقضى سنوات يكابد عذاب السجن في الاناضول حتى تحرك الراي العام في انجلترا والولايات المتحدة وطلب الافراج عنه فسعى سفيرا هاتين الدولتين حتى اطلق سراحه فقضى سائر ما بقي له من العمر فيهما . وكان يخطب ويدعو الى نصرة بلاده . وقد القى الخطبة التالية في برلمان الولايات المتحدة في واشنطون اذ دعاه الاعضاء الى وليمة في سنة ١٨٥٢ تكريماً له واعزازاً للمبدأ الذي قضى حياته في الدفاع عنه . قال :

أقف الآن امامكم كما وقف قينياس الاغريقي امام مجلس الشيوخ في رومية ـ ذلك المجلس الذي كان بكلمة واحدة حافلة بجلالة القوة يتحكم في أحوال العالم ويقف عتاة الملوك عن السير في طريق اطماعهم ـ اقف الآن امامكم وقلبي مفعم بالاعجاب والاحترام لكم انتم المتشرعون في هذا البرلمان الذين تمثلون جلالة الأمة المتحدة. ان جدران مجلس الشيوخ الروماني لا تزال اطلالها قائمة ولكن روحها قد هجرها اليكم بعد أن تنسم نسيم الحرية . وتلك الاطلال التي لا تزال شاخصة تغشيها الكآبة هي رمز الى فناء الجهود الانسانية وزوالها بينما هذا المكان هو رمز للحقوق الأبدية . كان ذلك المجلس كاسياً بلون الفتوح والحروب احمر قانياً وهو الآن في

ليل حالك من ظلام الظالمين بينما مجلسكم يسطع بضوء الحرية اللامع . كان ذلك يحتجن العالم الى مجده بينما مجلسكم هذا يحمي امتكم ولا يرضى بان يستحوذ على شيء من حقوق الأمة . كان لذلك روعة القوة التي لا تقاوم بينما أنتم تفخرون بتقييد هذه القوة . وكانت الأمم ترتعد وترتجف اذا رأت ذلك المجلس بينما الانسانية تعقد الرجاء بكم عند ما تنظر الى مجلسكم . وكان لا يدخل ذلك المجلس من الغرباء الا مهزوم او منكوب قد شدت ايديه بالأغلال لكي يركع عند اقدام الظافرين وأما أنتم فيدخل الغريب المبتئس اليكم فتدعونه الى أن يقعد بجانبكم حيث لا يدعى الملوك والقياصرة وليس لهذا الغريب من ميزة سوى انه زعيم مضطهد لأمة مقهورة لا حول له ولا قوة . كان شعار ذلك المجلس القديم : « ويل للمغلوبين » بينما شعاركم حماية المظلوم ولعنة الغاصب وعزاء المهزوم في قضية الحق . و بينما كان ذلك يقعد فيه رجال يفخرون بسيادتهم على العالم يقعد هنا رجال ينحصر مجدهم في الاعتراف بنواميس الطبيعة و بأله الطبيعة وفي انفاذ ارادة الامة التي هم خدامها

وان في تكريمكم اياي لتاريخاً للاجيال المقبلة . اجل . ان الاجيال المقبلة ستقرأ تاريخ ذلك الرجل الذي كان أول حاكم لبلاد المجر المستقلة فاخرجته القوة الروسية الغاشمة طريداً من بلاده فعاش في المنفى في بلاد الاتراك يحميه سلطان مسلم من استكلاب الجائرين المسيحيين ثم طوحت به دسائس السياسة الى سجون آسيا ثم مدت اليه اميركا يده تخلصته حتى اذا عبر المحيط الاطلانطيقي وهو يحمل آمال الامم المظلومة و يقف امام أهل هذه الجمهورية الكبرى فيذكر امامهم ظلامات بلاده وارتباطها بمصير

القارة الاوربية ويصرح بجرأة من يدافع عن حق بوجوب رفع مبادىء الدين المسيحي الى أن تكون قوانين دولية ، لم يران جرأته قد قوبلت بالصفح فحسب بل يجد ايضاً عزاء في عطف الملايين وتشجيع الافراد والمدن والاجتماعات والولايات تسنده معونتهم العاملة وتحييه حكومتهم وبرلمانهم وتقعده مقعد الضيف المكرم وتسبغ عليه من المكارم ما لا يطمع فيه امير قوي . ثم هذه الوليمة وهـذا الشراب الذي نتساقاه ـ اجل ان لفي هـذا تاريخاً للاجيال المقبلة

واني أؤكد دون تردد انه لا يوجد في بلادكم العظيمة هـذه رجل واحد قد خطر براسه أن يضع مقعد اطماعه على اطلال حرية بلاده . وهو لو اتيح له تحقيق ذلك لما رغب فيه . لأن للمؤسسات التي تنشا بين ظهراني امة آثاراً تنعكس على اخلاق افرادها . ومن زرع الريح حصد الزوابع . فالتاريخ يكشف عن مقاصد العناية الالهية . فالله القادر يدير العالم المادي والعالم الادبي بنواميس أبدية. وكل ناموس مبـدأ وكل مبدأ ناموس . والافراد كالامم لهم حق اختيار المبادىء بما لهم من الارادة الحرة . ولكنهم اذا ما اختاروا لم يعد لهم مفر من نتيجة اختيـارهم . فالحرية من لوازم الحكومة الذاتية . والعدالة والوطنية من لوازم الحرية . ومن مبدأ «المركزية» في الحكم يتولد الطمع . والاستبداد من لوازم الطمع . وان بلادكم لسعيدة لأنها قد اغرمت بالحكومة الذاتية غراماً شـديداً . وعلى هذا الاساس بنى آباؤكم بيتاً للحرية هو أمجد ما رأى العالم . ورقيتم انتم بهذا البناء حتى صـار اعجوبة العـالم . إن بلادكم لسعيدة اذ

اصطفاها الله لكي يثبت امكان اتحاد الولايات المستقلة كل منها محتفظ بحقوقه واستقلال حكومته ومع ذلك فهي كلها متحدة في دولة واحدة لكل نجم منها نوره الخاص يتلألأ ومن الجميع تتألف مجموعة تضيء سماء البشر

خطبة لغامبتا

كان غامبتا (١٨٣٨—١٨٨٢) أحد مؤسسي الجمهورية الفرنسية الحديثة. وعندما حاصر الالمان باريس في سنة ١٨٧١ فر من هذه العاصمة في بلون على أجنحة الريح حتى اذا صار بنجوة من جيوشهم نزل فأهاب بالأمة الفرنسية فالتفت حوله فجعلت الجيوش تعبى تلو الجيوش فلا تصيب من الاعداء سوى الهزيمة فتخلى عنه انصاره فاستقال هو من الزعامة ورحل الى اسبانيا . ونازل الجنرال مكماهون فحكم عليه بالحبس والغرامة ولكنه عاد ففاز عليه واستقال الجنرال . وكان رئيساً للوزارة الفرنسية ثم استقال في سنة ١٨٨٢ . وفي سنة ١٩٢٠ عندما احتفل بمرور خمسين سنة على الجمهورية أخذ قلبه فدفن في البانثيون مثوى أجساد عظماء الفرنسيين . وقد القى الخطبة التالية انهاضاً لهمم الفرنسيين بعد الانكسار العظيم الذي نالهم على يد الالمان . قال :

ان طبقة الفلاحين تتأخر جملة قرون عن طبقة المستنيرين والمتعلمين في هذه البلاد . اجل . ان المسافة بعيدة بيننا و بينهم نحن الذين قد حظينا بتعلم العلوم والآداب وإن كان هذا التعلم لا يزال ناقصاً . فلقد تعلمنا قراءة تاريخ بلادنا وأن نتكلم لغتنا بينما ـ وهذا من الفظائع ـ لا يزال كثير من مواطنينا لا يستطيعون الأداء

و يح هذا الفلاح قد قيدته أرضه بقيد الاسار يحمل عبئها حمل المتبدد الجسور وليس له من عزاء سوى أن يترك لأبنائه أرضه آملا أن يزيدوها فداناً أو بعض فدان . فجميع عواطفه ومخاوفه

ومباهجه معقودة بمصير أرضه . وأما عن العالم الخارجي وعن الاجتماع البشري الذي يعيش بين ظهرانيه فلا يدري سوى الاساطير والاشاعات . وهو مع ذلك فريسة الخداع والغش . فهو يطعن على غير دراية منه قلب الثورة التي أغدقت عليه النعم . ويدفع ضرائبه و يسخو بدمه لهذا الاجتماع الذي يخشاه بمقدار ما يحترمه . ولكن الى هنا تنتهي مهمته فاذا تكلمت معه عن المبادىء تبينت أنه يجهل كل شيء

فالى الفلاحين اذن يجب أن نوجه عنايتنا فهم الذين يجب علينا ان نرفههم ونعلمهم . ولا ينبغي أن تنبز الأحزاب بعضها بعضا بلفظة «الفلاحين» او «مجلس الفلاحين» ولا ينبغي ان يكون في هذه الألفاظ ما يسوء أحداً . فيا ليت كان لنا مجلس فلاحين في المعنى الحقيقي لهذه الكلمة . لان مثل هذا المجلس لم يكن ليؤلف من جهلة بل من المزارعين الأحرار المستنيرين الذين يستطيعون النيابة عن طبقتهم . و بدلا من ان تكون هذه الكلمة داعية إلى الهزء والسخرية تكون داعية الى تقدم سواد الأمة وتحضرهم . فمثل هذه القوة الاجتماعية الجديدة يمكن الانتفاع بها في المصلحة العامة إلا أننا لسوء الحظ لم نصل بعد الى هذه الدرجة وسنظل محرومين من هذا التقدم ما دامت الديمقراطية الفرنسية لا تعرف اننا بتعمير الأرياف ورد عظمة الفلاحين وقوتهم وعبقريتهم اليهم وفي تربية هؤلاء العمال وتحريرهم انما نعمل لمصلحة الطبقات العليا ونمس مادة بكراً حاوية لكنوز لا تفنى من النشاط والكفاية . فعلينا أن نتعلم ثم نعلم الفلاح ما عليه من الواجبات للأمة وما له من الحقوق عليها

وفي ذلك اليوم الذي ندرك فيه أنه ليس علينا من الواجبات ماهو أعظم من هذا وانه يجب علينا ان نرجىء جميع الاصلاحات وان نعرف أنه ليس يلزمنا سوى واجب واحد هو تعليم الأمة ونشر التربية وتشجيع العلوم — في هذا اليوم نكون قد خطونا خطوة واسعة نحو احياء الأمة. ولكن هذا العمل يجب أن يكون مزدوجاً يؤثر في العقل كما يفعل في الجسم. وبعبارة أدق أقول أنه يجب على كل إنسان أن يكون ذكياً مدرباً على التفكير والقراءة ومع ذلك ذا جسم قادر على العمل والقتال. فالى جانب كل معلم يجب أن يقف الجندي ومدرس الرياضة وذلك حتى يكون أولادنا وجنودنا وسائر مواطنينا قادرين على أن يحملوا السيف والبندقية وأن يسيروا على أقدامهم المسافات البعيدة وأن يناموا تحت قبة السماء وأن يتحملوا ببسالة جميع المشقات التي تعرض للوطنيين. فعلينا ان نرقي هاتين التربيتين، وتذكروا أنكم ان لم تفعلوا ذلك فنجاحكم في الآداب لن يجعل منكم سوراً وطنياً يحمي البلاد من الأعداء

واذكروا أيها السادة انه اذا كان الالمان قد تفوقوا علينا وإذا كنتم قد اضطررتم إلى مكابدة الآلام في رؤية بلادكم — بلاد كبير وهوش — تفقد أعظم ولاياتها التي يتجسم فيها الروح الحربي والتجاري والصناعي والديمقراطي فليس ذلك الا لنقص في آداب الأمة وصحة اجسامها. والآن تقضي مصالح بلادنا بأن نلزم الصمت فلا ننطق بكلمة هوجاء وان نكظم غيظنا في صدورنا، وان نقوم بذلك الواجب العظيم ألا وهو احياء الامة فنرصد له ما يلزمه من الوقت حتى يصير عملاً ثابتاً يدوم مع الأيام. فاذا كان

هذا العمل يقتضي عشرة أعوام أو عشرين عاما لانجازه فيجب ألا نضن عليه بهذا الوقت . ولكن علينا أن نشرع من الآن حتى نرى في كل عام تقدم الجيل الجديد في القوة والذكاء وحب العلوم وحب الوطن بحيث تحمل قلوب الشباب عاطفة مزدوجة ألا وهي أنه لا يخدم البلاد تمام الخدمة و ينصح لها الولاء الا من يخدمها بعقله وذراعه

لقد تعلمنا نحن تعليماً غير مهذب فعلينا ان نعالج أنفسنا من ذلك الغرور الذي جلب علينا البلايا العديدة . وعلينا أن نتحمل المسئولية فاذا عرفنا العلاج بذلنا كل شيء للوصول الى الغاية وهي احياء فرنسا . ففي سبيل هذه الغاية يجب ان لا نبخل بشيء مهما عظمت قيمته وأن لا نسأل عن شيء آخر قبل تحقيقها . فأولى حاجاتنا في هذا السبيل هي التربية ـ تربية كاملة من القاعدة الى القمة بمقدار ما يستطيعه الذكاء الانساني . ومن الطبيعي أن نعترف بحقوق الجدارة فيجب ايقاظ الكفايات وتزكيتها . ويجب اصطفاء القضـاة الاشراف النزيهين وأن تكون أحكامهم عمومية تثبت للجمهور انه ليس ثم من مفتاح يفتح ابواب الحق سوى الجدارة . وعليكم أن تنبـذوا أولئك الذين يضعون الاقوال مكان الاعمال واولئك الذين يضعون المحاباة مكان الجدارة وأولئك الذين يحملون السيف لا لحماية فرنسا وانما ابتغاء خدمة احد الاشخاص يطوح بهم في سبيل اهوائه ويشركهم في جرائمه ـ هؤلاء هم دعاة السوء وفاعلو الشر الذين يجب عليكم ان تنبذوهم

خطبة للنكولن

كان ابراهام لنكولن (١٨٠٩ — ١٨٦٥) زعيما لحزب تحرير العبيد في الولايات المتحدة الاميركية ثم رئيساً لهذه الجمهورية الكبرى . وربما لم تقع في العالم حرب اشرف من هذه الحرب . فقد انشطرت الامة شطرين : احدهما المؤلف من أهل الشمال يقودهم لنكولن يرغب في محو العبودية ورفع الزنوج الى مرتبة الاحرار . ولم تكن لهم مصلحة مالية في ذلك ولم يكن لهم مأرب خاص وانما غايتهم تحرير الانسان . وكان الشطر الثاني مؤلفاً من اهل الجنوب وكانوا يستوردون العبيد من افريقيا ويستغلونهم في مزارعهم فيسخرونهم لاعمالهم يشتغلون نهارهم بلا اجر لا يأخذون من اسيادهم سوى كفافهم من الطعام . واشتعلت الحرب وانهزم اهل الجنوب وفتح بذلك للانسان فتح جديد في المبادىء الادبية العليا . وقد القى لنكولن الكلمات الآتية في خطبة افتتاح عهد الرياسة الثانية . قال :

ابناء وطني : في وقوفي الآن امامكم للمرة الثانية لكي اقسم يمين عهد الرياسة لا تتيح لي الفرصة ان أسهب في الكلام بمقدار ما فعلت في المرة الاولى . فقد كان من المناسب في ذلك الوقت أن القي امامكم بياناً مفصلا بعض التفصيل عن الخطة التي أزمعنا اتباعها . أما الآن فبعد انصرام أربع سنوات تليت فيها تصريحات عمومية عن أماكن النزاع ووجوهه — هذا النزاع الذي لا يزال يستغرق جهود الامة وهمها — فليس لدي من القول مما جد سوى القليل . فان تقدم جيوشنا الذي يتوقف عليه كل شيء آخر معلوم لديكم كما هو معلوم لدي . واني أعتقد انه تقدم يجب أن نقنع به ونتشجع منه . ولست اجرؤ على التنبؤ ولكن رجائي في المستقبل عظيم . وقد كانت افكارنا في مثل هذا الموقف منذ اربع سنوات

تتجه نحو حرب اهلية وشيكة الوقوع . وكنا كلنا نخشى هـذه الحرب. وكنا كلنا نبحث عن السبيل الى تجنبها . و بينما كانت الخطبة الافتتاحية تلقى من هـذا المكان وكانت كلها تدعو الى الاتحاد وتجنب الحرب كانت العوامل الثائرة تعمل في المدينة لتمزيق هذا الاتحاد بدون الحرب وقسمة الغنائم بالمفاوضات . وكان كلا الحزبين يكره الحرب ولكن كان أحدهما يؤثر الحرب على تمزيق وحدة الأمة . فكانت الحرب

كان العبيد السود يؤلفون الثمن من سكان هذه البلاد ولم يكونوا متوزعين بالتساوي في أنحائها وانما كانوا يسكنون الجنوب . ومن هؤلاء العبيد كانت تنتفع أناس منفعة خاصة عظيمة . وكلنا كنا نعرف ان هذه المنفعة ستثير الحرب . وكان الثائرون الداعون الى تمزيق وحدة الامة يقصدون الى تقوية هذه المنفعة وتخليدها ومد شبكتها ولم يكن قصد الحكومة الا تحديد هـذه المنفعة وقصرها على مكانها دون أن تتسع دائرتها الى ولايات أخرى . ولم يكن احد الحزبين يتوقع أن تبلغ الحرب هذا المدى أو تطول الى هذه المدة كما لم يكن احدهما يتوقع حسم النزاع والاتفاق قبلما تعرف نتيجة الحرب . فكان كلاهما ينتظر انتصاراً سهلا أهون في النتائج وأقل في الروعة . فكلاهما يقرأ انجيلا واحداً ويصلي لاله واحد . وكلاهما يدعو الله أن يعينه على خصمه . وربما يتراءى لكم من الغريب أن يدعو انسان ربه لكي يؤيده في انتزاع الخبز من عرق جبين الاخرين ولكن لنترك الحكم على الناس حتى لا يحكم علينا . ولم يستجب الله لدعوات أحد الحزبين استجابة تامة لأن للخالق مقاصد لا ندركها

واذا نحن اعتقدنا ان هذا الرق الافريقي هو احد تلك الذنوب التي قدر الله حدوثها في وقت ما وان هذا الوقت قد انقضى بحكم الله وان عنايته الالهية قد قضت بان يزيل هـذا الذنب وانه قد اوجد هذه الحرب الهائلة لهذا القصد فهل نجد في هـذا مخالفة للصفات الالهية التي يؤمن المؤمنون بوجودها في الله ؟

وانا لنرجو الرجاء كله ونصلي الصلوات الحارة لـكي تنتهي هذه الحرب العتيدة وتزول بليتها عنا . ولكن اذا كانت ارادة الله قد قضت بأن تستمر هـذه الحرب حتى تأكل الاموال التي تكدست من كد العبيد كداً غير مكافأ مدة مائتي وخمسين عاما وحتى يأخذ السيف من دم سادة العبيد مقدار ما اخذه هؤلاء بالسوط من دم عبيدهم كما قيل منذ ثلاثة الاف عام فيجب ان نقول ان ارادة الله هي الارادة الصادقة وهي الارادة الحقة

فلنجاهد في انهاء هذا العمل الذي نحن فيه وصدورنا خلو من النيات السيئة نحو الناس وقلوبنا تفيض بالتسامح نحو الجميع ثابتين في الحق كما يرشدنا اليه الله حتى نضمد جراح الأمة وعلينا ان نعنى بذلك الذي اصطلى بنار الحرب ونعنى بمن تركه من الايامى والميتمين . وان نعمل كل ما يهيء لنا صلحاً دائماً بيننا وبين جميع العالم

خطبة لكافور

كان كافور (١٨١٠-١٨٦١) من عظماء ساسة القرن التاسع عشر فقد أسس دولة ايطاليا الحديثة وتوج عليها الملك فكتور عمانوئيل فكان لمملكة ايطاليا بمقام ابى مسلم الخراساني للدولة العباسية . ولـكنه لم يجز على فضله جزاء سنمار كما كوفىء ابو مسلم . ومات بعيد اتمام عمله بشهور مذكوراً من

بني وطنه بالفضل والحمد . وهذه الخطبة التالية القاها يناشد فيها قومه بأن يجعلوا رومية عاصمة الدولة الجديدة . قال :

يجب ان تكون رومية عاصمة ايطاليا اذ ليس هناك حل للمسألة الرومانية ما لم توافق ايطاليا اوربا على هذا المبدأ واذا كان هناك من يتوهم ان ايطاليا المتحدة يمكن ان تعيش وتدوم دون ان تكون رومية عاصمتها فاني اصرح بأن المسالة الرومانية تبقى مع ذلك صعبة الحل ان لم يكن حلها عندئذ محالا . ولعلكم تسألونني عن السبب في تشبثنا بحقنا او بواجبنا في جعل رومية عاصمة ايطاليا المتحدة ، ذلك لأنه اذا لم تكن رومية عاصمة ايطاليا فوجود مملكة ايطاليا لن يتحقق . وهذه حقيقة يشعر بها الايطاليون شعوراً غريزيا ويؤكدها جميع الذين يزنون المسائل الايطالية من الاجانب بميزان الحق والنزاهة وهي حقيقة لا تحتاج الى ايضاح لأن الامة باجمعها تقول بها وتناصرها

ومع ذلك ، ايها السادة ، فهذه الحقيقة يدعمها برهان بسيط . وذلك ان ايطاليا لا تزال في حاجة الى عمل اشياء عديدة قبلما تستقيم على قاعدة ثابتة وامامها عديد من المسائل التي اوجدها اتحادها الجديد والتي تحتاج الى حل سريع وامامها من العراقيل التي اوجدتها التقاليد التليدة ما يحتاج الى التمهيد تحقيقاً لهذا المشروع العظيم . ومن الضروري لكي ينجح مشروعنا ان لا يكون هناك سبب للشقاق والتطيرة وما دامت مسألة العاصمة لا تزال باقية معلقة فان الخلاف والشقاق سيستمران بين الولايات الايطالية

ومن السهل ان نعرف السبب الذي من اجله يقترح البعض من ذوي الثقافة والنبوغ والنية الحسنة ان تكون العاصمة مدينة

اخرى غير رومية مستندين في ذلك الى اعتبارات فنية او تاريخية او غير ذلك . والكلام في هذا الشأن ممكن الآن ولكن لو كانت رومية هي العاصمة لما استطاع أحد ان يناقش في الموضوع . وحتى اولئك الذين يعارضون في اتخاذ رومية عاصمة الآن لن يعارضوا اذا راوا ان الفكرة قد تحققت . فالوسيلة لحسم النزاع والشقاق بيننا لا يكون الا باعلان رومية عاصمة لايطاليا

ومما يسوءني ان ارى ناساً من الممتازين بالرفعة والنبوغ ومن ذوي المآثر في الاتحاد الايطالي يجرون هذه المسألة الى مناقشاتهم فيحاج بعضهم بعضاً بحجج الاطفال

ان مسألة العاصمة ايها السادة ليست من المسائل التي ينظر فيها الى الاعتبارات التاريخية أو الجغرافية أو الحربية . ولو كان لهذه الاشياء شان لما كانت لندن عاصمة انجلترا ولما كانت باريس عاصمة فرنسا . كلا . انما تنتخب العاصمة لاعتبارات ادبية ومشيئة الامة هي التي يجب أن تكون الفاصلة في موضوع كهذا يلصق بها أشد الالتصاق

ففي رومية وحدها قد اجتمعت جميع الظروف التاريخية والذهنية والادبية التي تحتم جعلها عاصمة دولة كبيرة . فرومية هي المدينة الوحيدة التي لها من مأثورها التليد ما يخرجها عن ان تكون بلدة ذات اهمية محلية . فان تاريخها من عهد القياصرة الى اليوم هو تاريخ مدينة قد رفعتها اهميتها الى ان تعدو حدودها والى ان تكون احدى عواصم العالم . فاقتناعاً بهذه الحقيقة اراني مضطراً الى أن إصرح لكم وللامة والى ان اناشد وطنية كل ايطالي كما اناشد جميع نواب البلاد بوجوب وقف هذا النزاع حتى يتاح

لمثلي امتنا في البلاد الاجنبية ان يعلنوا ان الامة تقرنا على جعل رومية عاصمة الدولة . وأظن ان أولئك الذين يخالفونني لأسباب أعرف قيمتها وحرمتها يرون انني على حق في هذه المسألة . واذكروا اني انا لي مدينة اخرى (تورين) لا أستطيع أن لا ابالي بمشيئتها وانه لمن بواعث حزني العميق أن انبيء أهل بلدتي بأن ينكروا على انفسهم هذا الامل في جعل بلدتهم مركزاً للحكومة

اجل ايها السادة . اني باعتبار شخصي لست اسر بالذهاب الى رومية . فاني غير حاصل الا على القليل من الذوق الفني . فلذلك عند ما اجدني بين اطلال رومية الفخيمة قديمها وحديثها ارثي لبلدتي الساذجة الخالية من الخيال والفنون . ولكنني اثق بشيء واحد ألا وهو ان اهل بلدتي بما عرفت من خلقهم و بما عرفت من استعدادهم للبذل والتضحية في سبيل انجاح قضية البلاد المقدسة ورغبتهم في التضحية لهذه القضية حتى وقت أن كانت بلدتهم تغزوها الاعداء ـ اقول اني لست اخشى ان لاينصروني وانا نائبهم وأن لا يبذلوا مصالحهم في سبيل ايطاليا المتحدة

وان الامل بأن عاصمة ايطاليا ستكون « المدينة الابدية » يملأني عزاء بان هذه المدينة لن تنسى فضل تلك البلدة التي كانت مهد الحرية والتي غرست فيها غراسها فاثمرت وانتشرت فروعها من جزيرة صقلية الى جبال الالب

لقد قلت وأعيد قولي بأن رومية ورومية فقط يجب ان تكون عاصمة ايطاليا

خطبة لمازيني

كانت ايطاليا قبل أن تتحد وتصير مملكة واحدة يحكمها برلمان على رأسه الملك فكتور عمانوئيل جزءاً من الامبراطورية النمسوية وغنماً مقسما بين أمرائها يسام أهلها الخسف ويجرعون كؤوس الذل حتى قيضت لها الاقدار ثلاثة من رجالها هم كافور وغاريبالدي ومازيني فنهضوا بالامة ونشروا لواء الاتحاد فانضوى اليه جميع ابنائها وقامت الحرب بين الغاصبين الاقوياء وبين الوطنيين الضعفاء . فوجد الوطنيون من حقهم قوة تغلبت به على باطل الغاصبين فانهزموا وتركوا الحق لذويه والوطن لاهله . وكان مازيني (١٨٠٨ — ١٨٧٢) اخطب الثلاثة . وكان دفاعه عن قضية الوطن بالقلم اكثر مما كان بالسيف . وهذه الخطبة التالية القاها مازيني في ميلان سنة ١٨٤٨ تأبيناً لشهداء كوسنتسا الذين قتلهم الاعداء ويحاول فيها الخطيب اثارة الوطنية في نفوس ابناء بلاده . قال :

عند ما ندبني شبابكم لكي افوه ببضع كلمات تقديساً لذكر بانديره واخوانه الذين قضوا شهداء في كوسنتسا خامرني الظن بأن بعض الذين سيسمعونني سيهيبون بي وقد أخذهم الغضب قائلين ، « دعنا من رثاء الموتى فأن التكريم الذي يليق بشهداء الحرية هو ان نظفر في المعركة التي شرعوا في القتال فيها . فان كوسنتسا التي ماتوا فيها لا تزال مستعبدة والبندقية التي ولدوا فيها لا تزال محوطة بالاعداء . فلنشرع في تحريرهما ولا ندع يمر بأفواهنا قبل تخليصهما سوى كلمات الحرب »

ولكن خطر ببالي شيء آخر . فأني تساءلت : لماذا لم نظفر للآن؟ ثم لماذا بينما نحن نقاتل للاستقلال في الشمال تموت الحرية في الجنوب؟ ثم لماذا بدلا من أن نقاتل في حرب كان يجب ان تثب وثبة الاسد نحو جبال الالب نرانا الان وقد مضى علينا اربعة اشهر ونحن ندب

دبيب العقرب المترددة قد حيطت بحلقة من النار ؟ وكيف تنقلب نهضة امة قد شملها احساس قوي سريع الى جهد المريض الجازع يتقلب في يأسه من جنب الى جنب ؟

اجل . لو اننا كنا ارتفعنا الى قداسة الفكر الذي مات من اجله هؤلاء الشهداء . ولو كان لواء ايمانهم المقدس يتقدم شباننا نحو المعركة . ولوكنا نحس ذلك الاتحاد الذي كان قويا في قلوبهم . ولوكان هذا الاتحاد يجعل من كل فكر من افكارنا عملا ويخلق من كل عمل من اعمالنا فكراً . ولوكنا ادخرنا كلماتهم الاخيرة في قلوبنا وتعلمنا منهم ان الاستقلال والحرية وحدة لا تنفصل وان الله والامة أو الوطن والانسانية كلمتان لازمتان لكل اناس يسعون في أن يكونوا أمة متحدة . ولوكنا نعرف ان ايطاليا لن تعيش عيشاً حراً حتى تصير مملكة واحدة يزكيها حبها لابنائها والمساواة التي تشملهم ويعظمها احترامها للحق الابدي وتستغرق مجهوداتها الاماني العليا فتصير بذلك اشبه بكنيسة ادبية بين امم اوربا . اجل . لو فعلنا ذلك لما كنا الآن في حرب بل لكان النصر يرفرف علينا . ولما كانت كوسنتسا تحتفل بشهدائها خفية وسراً ولما كانت منعت البندقية من اقامة اثر لذكراهم . ولكنا الآن نهتف لاسمائهم لا يخامرنا الشك في مستقبلنا ومصيرنا ولا تغمنا سحابات الكآبة . ولكنا الآن نقول لأرواحهم : « ابتهجوا فان ارواحكم قد تجسمت في اخوانكم . فهم جديرون بكم »

ان الفكرة التي عبدوها لم تشرق للآن على أعلامكم بطهارتها وكمالها . وهذا البرنامج السامي الذي خلفوه للجيل الايطالي الناشىء هو برنامجكم . ولكن المذاهب الكاذبة المنبوذة التي سكنت الى

فلو بكم قد شوهت هذا البرنامج بل فتتته ومزقته اربا . واني التفت ذات اليمين وذات الشمال فأرى جهود الجماعات وتفانيها وهي تتراوح بين الغضب تسخو فيه بنفوسها و بين الدعة تطمئن اليها فتنزل عن مقامها . وما هو ان نسمع صوت الحرية حتى تطن في آذاننا كلمات العبودية . ولكن اين هي نفس الامة ؟ واين هو الاتحاد في هذه الحركة المختلفة الاشكال والجهود ؟ بل اين هي الكلمة التي يجب أن تسود على جميع النصائح التي تسدى الى الجمهور لاستهوائه أو استغوائه ؟ فاني أسمع أقوالا وعبارات هي بمثابة الافتئات على سيادة الامة . فهناك من يقول : « ايطاليا الشمالية » او « عصبة الولايات » او « اتحاد الامراء » ولكن ايطاليا أين هي ؟ اين هي البلاد التي تجمعنا والتي حيا فيها شهيدنا بنديره ... ؟

انا ونحن في نشوة الانتصارات الاولى قد نسينا المستقبل ونسينا معه تلك الفكرة التي ألهمها الله اولئك الذين تألموا . وقد عاقبنا الله على نسياننا بتأخير انتصارنا . واذكروا يا اخواني ان هذه الحركة الايطالية هي بحكم الله حركة اوربا بأجمعها فاننا نهضنا لكي نسدي الى العالم الاوربي ضمانا لتقدمه الادبي . ولكن لا يمكن احياء أمتنا ورميها بالاكاذيب السياسية أو اطماع الاسر المالكة أو نظريات الوصوليين . وذلك لأن الانسانية انما تحيا وتتحرك بالايمان وما المبادىء العليا الا نجوم هدى ترشد اوربا نحو المستقبل . فلنتوجه نحو اجداث اولئك الشهداء الذين ماتوا في سبيلنا ولنستلهمهم نجد في عبادة ايمانهم سر الظفر والانتصار

الا ان ملائكة الظفر وملائكة الاستشهاد اخوة وانما ينظر الاولون الى الارض ويتطلع الاخرون نحو السماء وعندما يحين

الحين وتتلاقى نظراتهما بين الارض والسماء يزدان هذا العالم بحياة جديدة اذ ينهض شعب من مهد القبور . . .

احبوا ايها الشبان المثل الاعلى . احبوه واكرموه . فان المثل الاعلى هو كلمة الله . ففوق جميع الاقطار بل فوق الانسانية يوجد الوطن الروحي . مدينة النفس . حيث يؤمن الجميع بحرمة الفكر وكرامة النفس الخالدة وهم بهذا الايمان اخوان . وسبيل هذا الاخاء هو الاستشهاد . ومن هذا المستوى الاعلى تصدر المبادىء التي يكون بها فداء الامم . فانهضوا لأجل هذا المثل الاعلى ولا تجعلوا سبب نهضتكم نفاد صبركم أو آلامكم او خوفكم من المكاره . واذكروا ان الغضب والكبرياء والطمع وشهوة الثراء عدة الغالب والمغلوب على السواء . وانتم لو هزمتم عدوكم بهذه العدة اليوم فانكم مهزومون بها في الغد وانما ميزتكم في المبادىء اذ ليس لعدوكم سلاح يفلها . وعليكم ان تعودوا الى حماستكم الاولى والى احلام نفوسكم العذراء ورؤيا شبابكم الاول اذ فيها روائح الجنة التي تبقى في النفس من لدن نفخها الله فيها . واحترموا فوق كل شيء ضميركم ولا تنطقوا الا بالحق الذي زرعه الله في قلوبكم وارفعوا العلم الذي يعلن ايمانكم عند ما تشتغلون مع غيركم لتحرير ارض الوطن

ان ما اقوله لكم هو ما كان يقوله لكم شهداء كوسنتسا لو كانوا للآن احياء بينكم والآن اشعر كأن هاتفاً من ارواحهم قد استجاب الى حبنا فهي الآن تطيف بنا فادعوكم الى ضم هذه الارواح اليكم كنزاً تدخرونه في وسط هذه العواصف التي تهددكم والتي ستتغلب عليها بقوة اسمائهم التي تلفظ بها شفاهنا وايمانهم الذي يعمر قلوبنا كان الله معكم ولتنزل بركاته على ايطاليا

خطبة لِبت

كان وليم بت (١٧٥٩ — ١٨٠٦) خطيباً وابن خطيب نزع به العرق الدساس الى احتراف حرفة والده لورد تشاثام فصار زعيما سياسياً كبيراً وخطيباً مصقعاً . وكانت مهمته التي ارصد لها حياته ووقف عليها مجهوداته مكافحة نابليون . فقد البّ على هذا الجبار الفرنسي دول اوربا وهيأ له الجيوش والاساطيل . ولا يعلم ماذا كان يكون مصير العالم لو لم يخضد بت شوكة نابليون في بدايتها

وقد القى هذه الخطبة عن « الخطر الفرنسي » بمناسبة الشطط الذي تناهت اليه الثورة الفرنسية وانتصارات نابليون الحربية . وكان البرلمان الانجليزي قد تهيأ لمنح روسيا اعانة لكي تخلص اوربا من فرنسا . قال امام اعضاء البرلمان الانجليزي :

ان لنا من عزة النفس والولاء السامي وسجاحة الخلق وشرف الروح ما يعمر قلوبنا ويملأ نفوسنا بهجة فنمتاز بذلك على سائر الأمم ونجد في هذه الصفات ضمانا يؤمن بلادنا ويجعلها في حرز من من غزو المعتدين . اما بخصوص هذا الشيء الذي يقلق بال بعض الاعضاء — وهو تخليص اوربا — فاني لن اسهب في ذكر تفاصيله · فلن اقول انه يجب تخليص اوربا مما تعانيه الآن او مما تنتظر وقوعه في المستقبل او من عدوى المبادىء الكاذبة او من هموم هذا الزمن القاتلة او من انحلال الحكومات وموت الاديان وتهدم النظم الاجتماعية وغير ذلك مما سيلازم انتصار الجمهورية الفرنسية — اذا كانت لسوء حظ البشر ستنتصر على الرغم مما يصرف من الجهود في مكافحتها . كلا لن اقول لم يجب تنجية اوربا وتخليصها لأنه من السهل ان يجمع الانسان جميع الاخطار التي تتعرض لها اوربا فيجد انها بأجمعها عائدةٌ الى وجود الحكومة الفرنسية وقوتها .

واذا كان ثمت من يصرح بأن هـذه الحكومة ليست جائرة فهو مخطىء اشد الخطا وجاهل يجهل حقيقة هذه الحكومة . ان جورها هائل كريه تقبض على حياة الخاضعين لها وثروتهم فتتصرف بها وتبذلهـا ضحية لاطماعها وقسوتها وظلمها . ان هـذه الجمهورية الفرنسية قد حيطت بسياج من الجرائم وهي انمـا تحتفظ بوجودها الآن لأنه ينظر اليها بعين الخوف والرهبة فلا يقترب من حصونها الـكافرة احد الا ويرتد فازعا

وعلى هذا المبدأ لا أظن أن العضو الموقر يخالفني في أن تأمين بلادنا هو غاية هذا الكفاح الشرعية . وفي هذا القدر مايكفي لجعل كلامي مفهوما . اما سـؤال العضو الموقر : « هل تريد الحكومة متابعة الحرب حتى تنهزم الجمهورية الفرنسية ؟ وهل نيتها ألا تعامل فرنسا ما دامت جمهورية ؟ » فجوابي الصريح عليه اني اقول ان آرائي تعدو حدود البلاد الفرنسية . فاني افكر في سلوك فرنسا ومبادئها وخلقها . وانظر في هذه الاشياء فارى فيها خراب الامم التي حالفت هذه الحكومة . وعلى ذلك اقول انه ما دامت هـذه الكتلة الضخمة المؤلفة من الجنون لم تتغير تغيراً كاملا . وما دام خلق هـذه الحكومة باقياً كما هو . وما دمت لا استطيع ان اقول وانا مؤيد براي جميع الناس ان فرنسا لم تعد تزدري حقوق الامم الاخرى . وأنهـا لا تدبر التدابير لبناء امبراطورية كبيرة . وانها قد اهتدت الى حكومة تحتفظ بهذه العلاقات التي بينها وبين الامم الاخرى والتي لا يمكن اقواماً متحضرين ان يعيشوا آمنين بدونها والتي هي ايضاً مصـدر مجدهم وذكرهم ـ اقول اننا لا يمكننا ان

نتعامل مع فرنسا ما دامت هذه الشروط غير متوافرة فيها

والوقت الملائم للمناقشة في الصلح هو الوقت الذي يمكنكم فيه أن تثقوا بالوصول الى صلح شريف يعيد الى اوربا نظامها القديم متزناً وطيداً و يعيد الى كل دولة تدخل في المفاوضات تلك المكانة التي تضمن استقلالها كما تضمن الامن العام في اوربا

هذا هو اعتقادي الذي لا أخشى الجهر به اعرضه على اذهان الطبقات المفكرة في العالم البشري . فاذا لم تكن قد سممتهم السفسطة الفرنسية وأزاغت ابصارهم فاني واثق من انهم سيزكونني في اصراري على خطتي . واني ارجو رجاء حاراً ان تنظر الدول المشتبكة في هذا الكفاح الى هذا الموضوع كما نظرت اليه . وارجو على الخصوص ان يكون هذا هو نظر امبراطور روسيا وهو ما لا اشك فيه . وعلى ذلك اطلب من هذا المجلس ان يوافق على المشروع الذي عرضته حكومة جلالة الملك بخصوص اعانة روسيا

خطبة لولبرفورس

كان ولبرفورس (١٧٥٩ — ١٨٣٣) أحد أعضاء البرلمان الانجليزي وقد أرصد حياته لغرض واحد لم يعده الى غيره استغرق جهوده فعاش لهذا الغرض ومات بعد أن تحقق أكثره ولم يبق الا أقله . فقد قام في ذهنه منذ صباه أن الرق جور بالغ يجب قمعه ومحوه . وكان الزنوج في انجلترا الى عهده « عبيداً » يباعون ويشترون بيع السلع . فقضى ولبرفورس عشرين سنة في اقناع الامة والبرلمان بضرر النخاسة حتى اقتنع كلاهما بصحة مذهبه . فالغى البرلمان الرق في سنة ١٨٠٧ . ثم أخذ في اقناع الامة بضرر النخاسة في المستعمرات . وعرض مشروع الالغاء في البرلمان وقرىء القراءة الثانية ثم لم

تمض ثلاثة أيام حتى مات ولبرفورس . والقطعة التالية مختارة من حدى خطبه عن الغاء الرق . قال :

اني مقتنع بأنه مهما اختلفت آراؤنا فاننا اليوم متفقون مجمعون. فاني لا أستطيع ان أعتقد بأن مجلس العموم الانجليزي سيصدق على هذه التجارة الجهنمية أعني تجارة الرقيق في أفريقيا . لقد مضى علينا وقت جهلنا فيه طبيعة هذه التجارة ولكنها قد تكشفت لنا أساليبها الآن وظهرت عارية بجميع صنوف فظاعاتها . والحق أنه لم يظهر في العالم نظام شبيه بهذه التجارة من حيث أنها حافلة بالقسوة والشر . فهي تصل الى أبعد مدى في العدوان الملح والشر المصفى وهي تستهين بالمزاحمة وتجل عن المقارنة لانها فريدة في تفوقها الممقوت

ولكني يا سيدي الرئيس أراني مغتبطاً اذ تقدم الجمهور البريطاني في هذه الفرصة وأعلن عن شعوره بوجه صريح بعيد عن الابهام في هذا الشأن . ولست استطيع الأداء عما خامرني من السرور لفوز قضيتنا حتى صارت الأمة تنظر الى مسعانا نظر الموافقة والود بدلا من المقاومة وعدم الثقة السابقين . وقد كان من أثر هذا الشعور أن ارتفع المستوى الأدبي في البرلمان . اذ مهما ظن الناس او تحدثوا عن الخلافات الحزبية في البرلمان وتفشيها تفشياً مطلقاً فأن الأمة البريطانية بل سائر الأمم المحدقة بنا قد عرفت بأن هناك من الموضوعات ما هو فوق الأحزاب . فهناك الرباوة العليا التي نرتفع اليها بعيدين عن هذه النزاعات والخلافات التي يثيرها سافي السهول . واذا كنا نعيش ونحيا في جو حافل بالأبخرة والسحب تلعب بنا الاف الرياح المتعاكسة والتيارات

المتضادة فاننا في هذه القضية نحيا الآن في طبقة عليا يكتنفها هواء صاف هادىء نقي قد خلص الينا من كل ما يثير القلاقل «كالصخرة العصماء ترتفع مشمخرة نحو السماء فلا يبلغ مجهود العاصفة أن ينال نصفها . تطيف بها حول صدرها سحب تمخر الأجواء ولكنها لن تبلغ الرأس حيث أشعة الشمس الأبدية قد استقرت واطمأنت»

فعلى هذه الرباوة العليا اذن يجب ان نبني «كعبة» الخير والبر وعلينا ان نوطد الأساس في الحق والعدالة وليكن منقوشاً على بابها «السلام والبر لجميع الناس» وهنا يجب ان نقدم باكورة نجاحنا وان نرصد حياتنا لخدمة هؤلاء التعساء تضطرم في احشائنا حماسة سخية تقتضي منا اصلاح ما جلبناه من الأذى على هؤلاء المساكين . فلنأسون الجراح التي فتحناها . ولنبتهج بأننا الوسيلة السعيدة لوقف السلب والخراب وبأننا قد ادخلنا الى تلك البلاد المترامية الأطراف بركات المسيحية ورفاهيات المتحضرين وحلاوة الحياة الاجتماعية . واعتقادي انه ليس بين من يسمعني من لا يرحب بقدوم هذا العصر السعيد ومن لا يشعر براحة العقل وسلوى النفس عند ما يفكر ويتامل في هذه الخواطر الجميلة

خطبة لانجرسول

يعد انجرسول (١٨٣٣ — ١٨٩٩) من الطبقة الاولى بين مفكري الاميريكيين وخطبائهم وكان من خصوم المسيحية ولكنه كان على الرغم من ذلك محبوباً من الجماهير يتوافدون لسماع خطبه فيأخذ في اقناعهم (أو اغوائهم ؟) حتى يستهويهم بالفاظ وعبارات «لها انفاس الموسيقى وايقاع الاشعار حتى ليكاد نثره يقرأ شعرا لما في تأليف جمله من الايقاع». وهو مع كفره بالاديان ليس في اللغة الانجليزية من الخطب ما هو أحفل بالروح الدينية من خطبة القاها

عند وفاة أخيه تنبض بالعطف والمحبة وتثبت أن انجرسول كان يؤمن بالحياة الاخرى . قال :

اخواني . اني سأفعل الآن ما وعدني به كثيراً هذا الفقيد ان يفعله لي . هذا الفقيد الذي كان أخاً وزوجاً واباً فمات في ضحوة الرجولة ولما يبلغ ظهيرتها والظل لما يزل يميل الى الغرب

انه لم يجز في طريق الحياة تلك الأعلام التي تدل على انه قد بلغ اقصاها ولكنه شعر بالاعياء فانتحى جانباً من الطريق والقى عبئه على الأرض متوسداً اياه فأخذه نوم لا تكدره احلام واطبق جفنيه . فمات وذهب الى عالم صامت عالم التراب وهو بعد متعلق بالحياة يطرب للعالم

ولعله من المفضل الأحسن ان تصطدم السفينة بالصخرة المختفية فتغوص في لحظة الى القرار تحت الأمواج المصطخبة والسفينة بعد في اسعد ساعات سفرتها تقبل الرياح اشرعتها وتسكب الشمس اشعتها عليها لأن مصير السفينة الى التحطم سواء أكان ذلك في ارض الساحل ام في وسط البحر . وكل حياة بغض النظر عما اذا كانت حافلة بالحب مزدانة بالسرور ستنتهي في الختام الى مأساة بها من الحزن والظلام ما هو حري بأن ينسج من لحمة الموت وسداه

لقد كان هذا الرجل الشجاع الرحيم صخرة وسنديانا اذا عصفت عواصف الحياة ولكنه كان زهراً وكرما اذا انجابت السحب وصحت السماء . وكان صديقا للنفوس الجريئة يرتفع الى القمم وينبذ تحت قدميه الخرافات بينما كان يتفجر من جبهته فجر ذهبي لعصر رائع

كان يعشق الجمال وكانت تنهمل دموعه اذا ما مس نفسه جمال اللون أو جمال الشكل أو روعة الموسيقى وكان ينصر الضعيف والمسكين والمظلوم ويبسط يده براً بالفقراء . وقد ادى ما عهد اليه من الخدمات العمومية بقلب ولي ويد طاهرة

وكان من عباد الحرية واصدقاء المظلومين . وكم من مرة سمعته وهو ينشد هذه الانشودة : « لاجل العدالة اقيموا كلكم معبداً » وكان يؤمن بأن السعادة هي خير ما في العالم وأن العقل هو الشعلة الوحيدة وان العدالة هي احق ما يعبد وان الانسانيــة اليق الاديان والمحبة افضل الكهان . فكان وجوده مما يزيد افراح اصدقائه ولو ان جميع الذين افادوا منه مصلحة حضروا اليوم الى قبره واهدى كل منهم اليه زهرة لنام هذه الليلة تحت عرم من الازهار

ان الحيـــاة واد ضيق بين جبلين قاحلين من الابدية . ونحن انما نحاول عبثاً ان يخترق بصرنا هذين الجبلين . ونصيح صيحات عالية فلا يجيبنا غير صدى اصواتنا . ومن شفاه الموتى الخرساء لا تخرج لنا كلمة ولكن في ليل الموت هذا يرى الامل نجما ويسمع الحب المنصت حفيف الاجنحة

وهذا الذي ينـام الآن امامكم نوم الموت شـعر وهو في النزع باقتراب الموت فخاله عودة الصحة فهمس كلمته الاخيرة : « حالي احسن الآن » فلنؤمن على الرغم من الشكوك والتحكمات والمخاوف والدموع ان هذه الـكلمات العزيزة تصدق على جميع الموتى

واليكم انتم المصطفون من الاصدقاء الكثيرين الذين كان يحبهم وقد جئتم الان لـكي تؤدوا هذه المهمة الاخيرة للفقيد نقدم رماده

خطبة لماكولي

كان ماكولي (١٨٠٠ - ١٨٥٩) من ادباء انجلترا المعدودين « ما مس شيئاً الا زانه . فليس هناك ما يضارع ما كتبه ماكولي من المقالات الساحرة المتوهجة . وليس هناك من التواريخ مثلما الفه ماكولي من حيث القدرة على فتنة القارىء . وقد قيل عن اسلوبه انه يتسم بالقوة والنشاط والجزالة والوضوح وفوق ذلك تلك السمة التي قل وجودها الان وهي صحة اللغة »

وقد القى الخطبة التالية في سنة ١٨٤٦ عن « المعارف السطحية » قال :

ان من الناس الذين احب أن أتكلم عنهم بالاحترام والوقار من تعتريه المخاوف التي لا اساس لها عما يسمونه « المعارف السطحية » فهم يقولون ان المعارف الجديرة بان تسمى بهذا الاسم هي من البركات الانسانية وهي حليفة الفضيلة و بشيرة الحرية ولكن مثل هذه المعارف يجب أن تكون عميقة . فالجماعة التي قد شدت طرفا من الرياضيات وطرفا آخر من الهيئة وآخر من الكيمياء وقرأت شيئاً من الشعر وأصابت شيئاً آخر من التاريخ — مثل هذه الجماعة يقولون عنها أن وجودها مخطر بالمصلحة العامة . فالمعرفة السطحية في رأيهم شر من الجهل . وهم يستندون في زعمهم هذا الى قول بوب « اشرب حتى ترتوي والا فلا تذق » فالجرعة الصغيرة تسكر ولكن من عبّ افاق . . . واني اعترف بان هذه التخوفات لم تعترني يوماً ما وهذه الطمأنينة انما يبعثني عليها عدم استطاعتي التمييز بين المعرفة السطحية والمعرفة العميقة لانه ليس عندنا من المعايير ما نقيس به عمق المعارف . والقائلون بهذا التمييز يتوهمون وجود حد فاصل بين العميق والسطحي من المعارف

اشبه شيء بالحد الفاصل بين الحق والباطل . اما انا فلست اجد هذا الحد . هبنا تحدثنا عن رجال العلم العميق فهل نعني بذلك انهم قد بلغوا قرار العلم ؟ هل نعني انهم قد عرفوا كل ما يمكن معرفته ؟ بل هل نحن نعني انهم يعرفون الآن ما سيعرفه المبتدئون من الجيل القادم ؟ اننا اذا قارنا بين الحقائق القليلة التي نعرفها و بين ما نجهل من الحقائق التي لا تحصى لاعترفنا بأننا كلنا سطحيون ولكان فلاسفتنا أول من يقر بأنهم سطحيون . ولو فرضنا اننا سألنا عالماً مثل نيوطن عما اذا كان يعتد معارفه عميقة حتى في تلك العلوم التي لم يكن له فيها منافس لأخبرنا بان حاله كحالنا . فكلانا مبتدىء . وهذا الفرق الذي بيننا و بينه يزول عند ما يقارن بمقدار الحقائق التي لا تزال مجهولة . كما يزول الفرق بين الواقف في سفح الجبل والواقف على القمة اذا قورن بالمسافة التي تفصل الجبل عن النجوم الثابتة

فيظهر لكم من ذلك أن أولئك الذين يخشون المعارف السطحية لا يعنون بتلك المعارف ما يمكن ان يسمى سطحياً عند المقارنة بما لا يزال مجهولا . لأن جميع المعلومات الانسانية كانت ولا تزال وستكون سطحية اذا نحن قصدنا الى هذا المعنى . فما هو اذن المعيار الذي يصح ان نتخذه لقياس المعارف وهل يجب أن يكون واحداً في جميع البلدان وفي جميع الاوقات

لقد كان « راموهون روى » يعد بين الهنود من اعمق الناس معرفة بالثقافة الغربيــة على انه لو وجد في هذا المعهد لعد من السطحيين الذين لا يؤبه لهم . وكان سترابو يعد بحق منذ ثمانية عشر قرنا من اعمق الجغرافيين في حين ان المعلم الذي يجهل اسم اميركا الان

يكون مضحكة بين البنات . وماذا نقول الان عن معارف عظماء الكيمائيين في سنة ١٧٤٦ أو عظماء الجيولوجيين في سنة ١٧٤٦ ؟

فالحقيقة الراهنة ان الانسان من حيث العلوم التدريبية في تقدم مطرد . ولكل جيل بالطبع صفوفه المتقدمة وصفوفه المتأخرة ولكن الصفوف المتاخرة في الجيل الجديد تأخذ مكان الصفوف المتقدمة في الجيل السابق

انكم تذكرون قصه جوليفر . فقد تحطمت به سفينته في بلاد يسكنها اقزام صغار فكان بينهم عملاقاً يخطو على اسوار عاصمتهم واذا انتصب فاق طول قامته منائر معابدهم . فكان يجر اسطولا ملوكياً وكان يمد ساقه فيمر تحتها جيش الملك يحمل الرايات و يدق الطبول . فاذا افطر التهم احد اهرائهم واذا تعشى اكل قطيعاً من مواشيهم فاذا عطش عمد الى دنان النبيذ فشربها جملة . ثم يسيح سياحته الثانية فيجد نفسه بين اناس يبلغ احدهم في القامة ستين قدماً فبينما كان يحتاج وهو في بلاد الاقزام الى ان يحمل الناس على يديه و يضعهم عند اذنه لكي يسمع ما يقولونه له اذا به تفعل به العمالقة ما كان يفعله مع اولئك الاقزام . يتفرج السيدات بمشاهدته وهو يقاتل الجرذان والضفادع والزنابير . ثم يأتي قرد فيختطفه و يتسلق به احدى المداخن فاذا بلغ القمة ارداه فيقع في صحفة من القشده يسبح فيها ويخرج ناجياً بنفسه

لقد كان هذا الرجل في بلدته الأصلية مثل سائر الناس ذا قامة اعتيادية فلما صار في بلاد الأقزام صار عملاقا وعاد قزما بين العماليق . وهكذا الحال في العلوم . فعمالقة احد العصور قد يكونون اقزام عصر آخر

خطبة للورد رسل

كان لورد جون رسل (١٧٩٢ — ١٨٧٨) أحد رؤساء الوزارة الانجليزية وكان من أكبر زعماء حزب الاحرار في القرن التاسع عشر تحت رايته نشأ غلادستون وعلى يديه اشتد ساعد الاحرار حتى صاروا قوة يحسب لها المحافظون حسابها . ومن مآثره اصلاح طرق الانتخاب للبرلمان وكانت الاصوات تباع في زمنه بالنقد جهراً وكانت دوائرها لا تتناسب عدداً ومن ينتخب منها . وهو أيضاً صاحب الفضل في الغاء المكوس الجمركية على الحبوب الواردة لانجلترا

وكان في الخطابة وسطاً لا يأتي بالدون ولا يرتفع الى الجيد الناصع ولكن خطبه كثيرة وأكثرها يتعلق بالشئون السياسية . وقد القى الخطبة التالية في معهد الميكانيكيين في ليدس وموضوعها « قيمة الصدق في الاداب » قال :

ان سعة هذا الموضوع تجعلني اشعر بضيق الوقت اذا حاولت ان ابحث بعض فروعه . ولكن لي كلمة اجدني جريئاً على ان اقولها لكم وهي جديرة بان يعتبرها كل من يتصدى لدرس الآداب . ففي الادب عدد لا يحصي من التآليف تختلف من حيث الذوق ومن حيث الصيغة . فمنها الرزين ومنها الزاهي . ومنها ما يتطوح مع الخيال ومنها ما لا يحيد عن المنطق . ولكنها جميعها تحتاج الى شرط واحد هو في اعتقادي شمول الصدق لها . لقد قال أحد المؤلفين الفرنسيين ان الجمال ليس سوى الحقيقة وان الحقيقة وحدها هي الجميلة وان الحقيقة يجب ان تنبسط على الاساطير الخيالية . وهــذا قول حق . لأني أعتقد انه لا يمكننا أن نقيس الادب الخيالي وننقده تمام النقد الا اذا صدق تمثيله للطبيعة .

ولعلي أحسن الافصاح عمــا اريد اذا ضربت لكم مثلا او

مثلين . فقد عاش في القرن الماضي شاعر قد ذاع صيته واشتهر بحق بجزالة الخيال وقوة الاحساس أعني به : ينج . فانه على الرغم من مواهبه لم يكن موفقاً في صدق الاداء . فقد قال في احدى قصائده : « ان النوم مثل هذه الدنيا سريع الى زيارة من يبسم لهم الحظ . بينما هو يهجر البائسين . ولا يقع الا على الجفون التي لم تكدرها الدموع »

فاذا انتم حققتم النظر في هذه الكلمات رأيتم ان الشاعر قد خلط شيئين معا . فقد خلط بين اولئك المجدودين الذين نالوا حظهم من هدوء البال وكمال العافية و بين اولئك المجدودين الذين حصلوا على الثراء . فانظروا الآن متى تجدوا ان اولئك الذين لم ينالوا حظهم من هذه الدنيا ورأوها قد تنكرت لهم والذين لم يبتسم لهم الحظ يهنأون بالنوم اللذيذ أكثر مما يهنأ به من يفوقونهم رتبة او ثروة

ولا شك في انكم تذكرون شاعراً آخر صادق التمثيل للطبيعة أعني به شكسبير . فهو يذكر في احدى قصائده بحاراً صغيراً قد اخذه النوم وهو في مكانه المزعزع على الصاري تحفه رياح العاصفة . بينما الملك لا يستطيع النوم في فراشه الوثير . فهذا هو الشاعر الذي لا يعدو حقائق الطبيعة

فاذا أنتم نظرتم في هذه الاعتبارات وقستم الشعر بهذا المقياس وعولتم عليه ايضاً في درس التاريخ وغيره حصلت لكم قوة التمييز وصرتم على بينة مما تقرأون فتعرفون عندئذ ما اذا كان جديراً بانتباهكم واعجابكم او انه كثير الاغلاط غير جدير بالالتفات

• •

خطبة للورد بيكونسفيلد

كان بيكونسفيلد (١٨٠٥ ـ ١٨٨١) يهوديا « طالب دنيا » نشأ على دين موسى فرأى اهل ملته مكروهين محرومين من بعض الحقوق المدنية فتقمص بلباس المسيحية ودخل البرلمان . فكان قريع غلادستون . كلاهما على طرفي نقيض وكلاهما يرمي الى غاية تختلف عن غاية الاخر . كان غلادستون حراً يقول بالديمقراطية . مسيحياً يخلص الايمان للمسيحية . وكان رجل ايثار ونبل في العواطف اذا اهتاجته فاضت على لسانه وحياً يستطير لب الانجليز فيأتمرون بما أمر وينتهون بما نهى . وكان بيكونسفيلد على عكس ذلك . كان محافظاً يكره الديمقراطية ويخشاها . يهودي القلب في مسلاخ المسيحي . لم يكن للعواطف عنده شأن تدفعه أثرته الى تجشم المشاق لكي يرضي كبرياءه . فكان لذلك يتخذ هيئة خاصة في لباسه وفي مشيته يروض نفسه على الكتابة والخطابة حتى بلغ فيهما شأواً عظيما . ولم يكن المثل الاعلى في جميع أطوار حياته غايته لانه لم يكن له من غاية سوى مصلحته الذاتية . ولو لم يعش في القرن التاسع عشر لكان هذا القرن خيراً واحسن أثراً في السياسة للشرق والغرب مما كان . فهو الذي جاهد غلادستون في منح ارلندا استقلالها . والاستعماريون الانجليز يذكرون ويشكرون له صنيعه في جعل ملكة انجلترا « امبراطورة » على الهند

قال في احدي خطبه عن « اخطار الديمقراطية » :

اعتقد انه من الميسور أن نزيد عدد الناخبين في البلاد اذا بنينا هذه الزيادة على مبادىء لا تتعارض ومبادىء الدستور فلا يكون الانتخاب من حقوق الافراد بل امتيازاً يمتاز به الفرد لما اكتسبه من فضائل اولما له من ذكاء أو اجتهاد او استقامة ويستعمله للمصلحة العامة . فاذا أنتم اطرحتم هذه القاعدة ورضيتم بالنظرية القائلة بان لكل شخص الحق في الانتخاب ما دام لم تحكم عليه أحكام تحرمه هذا الحق فانكم بهذا العمل تهدمون أساس الدستور وتهدمونه بكيفية تسقط كرامة الامة

ان بين المشروع الذي عرضناه و بين ذاك الذي عرضه العضو المحترم فرق ما بين الحكومة الارستقراطية اي الحكومة المؤلفة من نخبة الامة و بين الحكومة الديمقراطية . واني أرتاب كثيرا في ما اذا كانت الديمقراطية توافق هذه البلاد . ومن حق هذا المجلس ان يعرف عند النظر في هذا المشروع ان ما يدعى اليه انما هو الاختيار بين المحافظة على الدستور الراهن أو قبول الديمقراطية

وعلى المجلس أن يتذكر أن ما يعرض عليه الآن له قيمته من الثمن. فان شعبنا له صفات خاصة . وليس في العالم الآن أمة تعيش في مثل الظروف التي نعيش فيها . مثال ذلك ان لنا كنيسة قوية قديمة ذات اوقاف ثمينة ومع ذلك نعيش في حرية دينية تامة . ولنا نظام لا يختل ترافقه حرية مستوفاة . وعندنا ضياع واسعة تشبه ضياع الرومانيين ومع ذلك لنا نظام تجاري يفوق ما كان للبندقية وقرطاجنة مجموعتين. ومع هذه المتناقضات وهذه الخواص التي تتسم بها بلادنا نعيش في كنف حكومة لا تعتمد على القوة . فليس لنا جيوش مرابطة . كلا انما نحن تحكمنا مجموعة من التقاليد القديمة التي احتفظ بها آباؤنا جيلا بعد جيل علماً منهم بأنها تخلد العادات وتقوم مقام القوانين وماذا فعلنا بهذه التقاليد ؟ أنشأنا بها أكبر امبراطورية في العصر الحاضر . وجمعنا من رؤوس الأموال مقادير تشبه ما يذكر في الأساطير . وأنشأنا نظاماً من الاعتماد في الصناعة والعمل ليس له شبيه في التاريخ من حيث السعة والتراكب . وهذه الأعمال العظيمة لا تتناسب وثروة البلاد وعناصرها الأصلية . فاذا أنتم هدمتم إساس هذه العظمة فاذكروا أن انجلترا لا يسعها ان تبدا من جديد إن هناك بلاداً قد قاست آلاماً مبرحة وتعرضت لأخطار

هائلة . ها كم الولايات المتحدة التي نزلت بها من المحن في أيامنا هذه ما سمعتم عنه . فقد رأيتم هناك حرباً أهلية يتناحر فيها الاخوان عاشت مدى أربع سنوات . ولكن هذا الزمن على طوله وعلى ما كان فيه من عناء وخراب وكوارث لم يكن ليمنع الولايات المتحدة من البدء ثانياً لأنها في حال تشبه تلك الحال التي كان يعيش فيها أسلافنا في حرب الورود (سنة ١٤٥٥) عند ما كان السكان لا يزيدون على ثلاثة ملايين نفس والبلاد تحتوي على ما لا يحصى من الأرض البكر والكنوز المعدنية التي لم تستغل بل التي لم تكشف بعد . وها كم فرنسا . فقد قامت في تلك البلاد ثورة في ايامنا هذه غير ثورة أخرى حدثت في عصر آبائنا . وكانت كلتاهما انقلاباً حقيقياً غير قاصر على تغيير الأحوال السياسية والاجتماعية . فقد أقتلعت مؤسسات الأمة اقتلاعاً ومحيت فروق الهيئة الاجتماعية بل بلغ التغيير حد ابدال الاسماء والأعلام . ولكن مع كل ذلك استطاعت فرنسا ان تبدأ من جديد . وذلك لأن لها متسعاً من الأراضي الزراعية في اوربا وسكانها كانوا ولا يزالون محدودي العدد يعيشون عيشة غاية في السذاجة

ولكن انجلترا . هذه البلاد التى نعرفها ونعيش فيها ونزهى بها ليس في مقدورها ان تبدأ من جديد . ولست أعني بذلك انه اذا فشت في انجلترا القلاقل ذهبت حضارتها وأصبحت خراباً يباباً . كلا . فان ذكاء الامة يعود فيأخذ في الظهور و يبقى شيء من الاخلاق ولكن انجلترا هذه التى نعهدها بما فيها من مأثور الآباء و بأس الابناء وبما فيها من الاموال والنظم التجارية تزول . . . وأني ارجو ان

المجلس عند ما يدرك أن المشروع يراد به طعن دستور البلاد لن يأذن بالتقدم خطوة واحدة نحو الديمقراطية إذ عليه ان يحافظ على النظام الحاضر الذي نعيش فيه على أرض انجلترا

خطبة لغلادستون

تاريخ غلادستون (١٨٠٩ — ١٨٩٨) هو في الواقع تاريخ انجلترا في القرن التاسع عشر أو على الاقل تاريخها في ثلثيه الاخيرين . فليس هناك مسألة مهمة تتعلق بسياسة البلاد في هذه المدة لم يكن لرأيه أثر فيها . وكانت الميزة التي أتسمت بها شخصيته وجعلت الشعب الانجليزي ينقاد اليه اخلاصه . فلم يكن يعرف « دهاء » السياسيين أو أساليب المواربة وطرق الغش والتمويه وكان لسانه ترجمان قلبه . « ولم يكن له من يعدله في المناقشات البرلمانية في تاريخ البلاد وكان صوته بطبيعته جميلا حلواً قوياً نافذاً يرن على أوتار جميع العواطف وقد كان مرانه الطويل في مجلس العموم سبباً في تنشئة مواهبه الى أقصى حد . وكانت طلاقة لسانه تبلغ به حداً فاحشاً بحيث تحمله فصاحته أحياناً الى غاية بعيدة ولكن المستمعين له لم يكن يظهر عليهم مع ذلك انهم يسأمون الاصغاء اليه »

وقد اخترنا القطعة التالية من خطبة القاها في جلاسجو في سنة ١٨٦٥ عن « الحروب والاستعمار » قال :

اذا رجعنا الى تاريخ الانسان في العصور الاولى نجد انه كان يعيش بلا قوانين تحدد حقوق الافراد فكان اول ما يجول بخاطر الفرد اذا أراد أن يصلح من شئونه ويزيد ثروته ان يغير على جاره ويأخذ منه عنوة ما يملك . فكانت القرصنة والغزو في العصور الاولى يقومان مقام الحروب في العصور الحديثة . تسألون لماذا ؟ فلننظر في عبر الحرب

• في الحرب فريقان لا يمكن أن يكون كلاهما على صواب بل يمكن أن يكون كلاهما مخطيء . واني اعتقد انه اذا نظر مؤرخ نزيه

في عدد عظيم من الحروب التي نشرت الخراب في العالم ـ بصرف النظر عن ذلك البعض الذي لا يشك فيه والذي سلت فيه السيوف في شأن الحق والعدل ـ فأنه يجد ان كثيراً منها قد أثاره الطيش والشهوات والطمع من الجانبين وان نتائج هذه الحروب كان الندم ولات ساعة مندم عند كلا الفريقين

ففي تاريخ العالم حروب دينية . وقد جزنا نحن هـذا الطور . ولكنني لست واثقاً من انه لم يكن لتلك الحروب ما يبررها من التعللات التي نجدها في الحروب الأخرى المدونة في التواريخ . فذلك الجنون الذي قاد الامم الى الحروب الدينية هو الذي ساقها بعد ذلك الى حروب أخرى غير دينية . فقد جرت حروب بين اعضاء الاسر المالكة ينازل بعضهم بعضاً و يسفكون دماء الامم التي يتقاتلون من أجل الاستئثار بالتسلط عليها . واعتقادي اننا قد جزنا هذا الطور ايضاً . وهناك حروب أبعد مدى وأخطر أثراً مما ذكرنا وهي تلك التي تهاج لأجل التوسع والامتلاك . ولست أشك بان بواعث هذه الحرب طبيعية في الانسان ولكنها بواعث اجرامية مخطرة واني شديد الاسف لما اجد الآن في أيامنا الراهنة من ان الرغبة في الامتلاك والتوسع لا تزال حية في قلوب امم تعيش في أقدم بلاد اوربا حضارة

ولكني أريد أن الفت نظركم الى الكيفية التي صارت بها هذه الرغبة في الامتلاك والتوسع سبباً في سفك الدماء واثارة الحروب بدرجة تفوق ما كانت عليه قبلا . فانما كان ذلك وقت أن شرعت الدول الاوربية في الاستعمار . كأنما قد ظهر لهم ان هـذه الدنيا قد ضاقت بهم . لقد كنا نظن عند ما ننظر الى سعة هـذا العالم

وعندما نجد ان قليلا منه مأهول الآن . وأقل منه كان مأهولا قبلا منذ قرن او قرنين من الزمان نرى انه لم يكن هناك ما يدعو الى الشجار لأن في هذه السعة مندوحة عنه . ولكن الاستعمار على الرغم من ذلك كان سبباً في الحروب الدموية مع جيراننا . وكان أساس هذه الحروب تلك الشهوة القديمة ـ شهوة التوسع وامتلاك الارضين .

و بما ان احوال اوربا كانت قد استقرت واطمأنت ولم تجد الدول متسعاً لمرضاة شهواتها في التوسع فيها كما كانت تجد لو كان الوقت وقت همجية وفوضى ذهبت بسلاحها وجيوشها عبر المحيط الاطلسي فنشبت هناك الحروب من أجل التوسع والامتلاك

وهذا كان من شر أغلاط الانسان واليه تعزى أكثر حروب القرن الماضي . ولكن لو عرف آباؤنا كما نعرف الآن نعمة التجارة والتبادل الحر للبضائع لكانوا اذن في غنى عن جميع تلك الحروب . اذ ماذا كانوا يقصدون من تلك الحروب ؟

كانوا يرمون الى الاستعمار ولكن الغاية البعيدة التي كانوا ينظرون اليها في الاستعمار لم تكن الامتلاك فحسب وانما كانت زيادة ارباح الامة من التجارة بين المستعمرات و بين الدولة المالكة لها . ولهذا لم يكن خطا الاستعمار قاصراً على أمة واحدة فان جميع الامم سواء في ارتكاب هذا الخطأ

هكذا كان خطا اسبانيا في مكسيكا وخطأ البرتغال في البرازيل. وخطا فرنسا في كندا ولوزيانا . وكان خطأ انجلترا في استعمارها الهند الغربية والشرق . وكان جماع الخطا في اعتقاد الجميع بانه متى استعمرت احدى البلاد القاصية صارت تجارتها وارباح هذه التجارة

وقفاً على الدولة المالكة لهذه البلاد دون أن ينال غيرها منها شيئا . وكانت الحروب نتيجة هذا المذهب . لأن جميع الدول صارت تعتقد ان الاستعمار لا قيمة له ما لم يقصر امتياز التجارة على الدولة المالكة ومستعمراتها. ومن هنا نشات أطماع الدول في الغارة على مستعمرات غيرها للحصول على هذا الامتياز

لقد قضى ذكاء الانسان المضلل في ذلك الزمن الذي أشرت اليه أن تكون التجارة التي يجب أن تكون سبيل الرابطة بين بني البشر سبباً في إثارة الحروب وتبريرها هنا في بلادنا وغير بلادنا نبررها عند الشروع فيها ونتمجد بها عند ختامها فناخذ من الجار مستعمرته ونعتبر هذا العمل توسيعاً للمعاملات التجارية وترقية للصناعة في بلادنا . لقد كان هذا خطأ مخطراً جنونياً . وهو أحرى بهذه الصفات اذا اعتبرنا اننا نزعم إننا قد اقلعنا عن الطرق القديمة التي مارسها الانسان في العصور الاولى ـ طرق الغزو والنهب وملنا الى الصلح والسلام . ولكني أرتاح الآن الى القول بأننا قد افلتنا من هذا الزعم الخادع . أجل ليس من الحكمة ان نفخر على آبائنا. لقد كانت أخطاؤهم تنسل اليهم انسلالا فلا يلحظونها ولا يقدرون جرائرها . ولعلنا نحن أيضاً في هذا المركز تتسرب الينا الاخطاء فلا نحس بها . وحقيق بنا أن نتواضع عند ما نقارن انفسنا بالبلاد الاجنبية الآن أو بالدول السابقة في العصور الماضية وان نقنع بالحمد عند ما نرى خطأ قد صحح وعلينا أن نصمم بألا تعود هذه الاخطاء الى الوجود بل علينا أن لا نني عن معونة اولئك الذين لا يزالون يعتقدون صحة هذه الاوهام . ولست في حاجة الى القول بخصوص مستعمراتنا انها لم تعد سبباً في الحروب لاننا قد انتهينا الى الاعتقاد

بان عظمة هذه البلاد لا تتأكد من حيث العلاقة مع هذه المستعمرات إلا اذا جعلناها تتمتع بجميع الحقوق والميزات التى نتمتع نحن بها . واذا اتفق أن وجدنا عدداً كبيراً من السفن الاميركية تتجر في كالكوته فلن يكون في هذا ما يهيج فينا عواطف الحسد بل على العكس نمتلىء سروراً . لان معنى هذا زيادة ثروة الامبراطورية الهندية وسعادة أهلها وكلما زادت هذه الثروة وهذه السعادة عاد علينا ذلك بالربح بواسطة التجارة

خطبة لبسمارك

كان بسمارك (١٨١٥ — ١٨٩٨) « رجل الدم والحديد » جمع شمل الدويلات الالمانية العديدة تحت علم واحد هو علم الامبراطورية بقيادة بروسيا وكان رأسه من أضخم الرؤوس كما ثبت ذلك بعد تشريح جثته عند وفاته . فاذا كان ذكاؤه يعزى الى ضخامة هذا الرأس أو لا يعزى اليها فالواقع أنه كان من أذكى السياسيين . يدس الدسائس ويدبر الحروب بمهارة الابالسة . فحارب دانمارکا والنمسا وفرنسا وتغلب عليها وفي سنة ١٨٧١ في عقر دار المهزوم في فرساي توج ملك بروسيا امبراطوراً على المانيا . فلما تولى الامبراطور غليوم (الذي يعيش الان منفياً في هولانده) حسده على عظمته ورأى فيها ما يكسف ضوءه فأخرجه من الحكومة

والقطعة التالية مختارة من خطبة ألقاها بمناسبة مشروع الدستور الالمانى الذي قدمه البرلمان الثوري ولم يكن هذا المشروع وفق هوى بسمارك لانه لم ينص على سيادة بروسيا . قال :

ايها السادة . لقد آلمني أن أرى هنا بروسيين بالحقيقة لا بالاسم فقط يعضدون مشروع الدستور هذا بقوة وحماسة . ولقد شعرت بالهوان والصغار كما يشعر بهما الالوف من أبناء وطني عندما رأيت ممثلي الامراء الذين احترمهم في مقاماتهم الرسمية الشرعية ولكني

لا أدين لهم بطاعة أو ولاء قد صاروا بهذا الدستور سادة ذوي سلطان . ومما زاد مرارة هذا الشعور اننا في افتتاح المجلس رأينا المقاعد مزينة برايات تخالف رايات الامبراطورية الالمانية بل كانت على العكس من ذلك مدة السنتين الماضيتين شارة الثورة والتمرد . وهي رايات لا يحملها في ولايتنا باستثناء الديمقراطيين سوى الجنود . يحملونها طاعة للاوامر والاسى ملء قلوبهم

أيها السادة . انكم اذا لم ترضوا الروح البروسية في هـذا الدستور فاني أعتقد انه سيبقى حبراً على ورق . واذا أنتم حاولتم أن تسوءوا البروسيين الاذعان لهذا الدستور فانكم ستجدون منهم ما وجده الاقدمون من جواد الاسكندر ، بوكيفالوس ، الذي كان يحمل مولاه و يسير به جريئا مبتهجا بينما هو كان يقذف الفارس الذي يتطال الى امتطاء صهوته و يلقيه على الرغام يتمرغ بذهبه وفروه وسائر حليه وملابسه . ولكن يعزيني الان اعتقادي الراسخ بأن الوقت لن يطول حتى تنظر الاحزاب المختلفة الى هذا الدستور كما نظر الطبيبان في أسطورة لافونتين الى جثة المريض الذي كانا يعودانه . اذ يقول أحدهم : « لقد مات . ولقد تنبأت بذلك منذ رايته » . فيقول الآخر : « لو انه استمع لنصيحتي لما مات »

خطبة لجون برايت

كان جون برايت (١٨١١ ـ ١٨٨٩) من احرار الانجليز ساعد غلادستون الايمن يعضده في كل مشروعاته وينافح عن سياسته . وكان خطيباً مفوها « قد منحه الله نعمة الصوت اذا خطب سمعت منه موسيقى فصيحة تنفذ الى أعماق الشعور و[illegible] الى قمم الغضب »

وقد اخترنا القطعة التالية من خطبة له القاها في سنة ١٨٥١ عن عبء الانظمة الحربية وما تكلف الامم من باهظ النفقات . قال :

اني أعتقد ان عظمة الامة لا تدوم الا اذا ثبتت على أسس الاداب ولست أبالي بالعظمة الحربية أو الذكر الحربي . وانما احق بالمبالاة والعناية أفراد الامة التي نعيش في ظهرانيها وأحوالهم . انكم تعرفون انه ليس في انجلترا من هو أبعد مني عن قول السوء في التاج والملوكية . ولكن اعلموا ان التيجان والصولجانات والابهة الحربية والمستعمرات الواسعة والامبراطوريات العظيمة هي كلها في رأيي هباء كالهواء لا تستحق النظر والاعتبار الا اذا كانت الأمة حاصلة على نصيب كاف من الرفاهية والرضى والسعادة . فان الأمة لا تتألف من القصور والآطام والابهاء والدور الفخمة . فالأمم في جميع البلاد تعيش في الاكواخ واذا لم يضيء الدستور هذه الاكواخ واذا لم تصل السياسة الرشيدة اليها وينطبع أثرها على أحوال سكانها وشعورهم فثقوا بانكم لم تتعلموا بعد واجبات الحكومة

لقد حكى لنا أقدم المؤرخين ان الاسكيثيين كانوا في زمنه أكثر الشعوب ميلا الى الحروب وانهم قد رفعوا صولجانا على منصة رمزاً «لمارس» اله الحرب ولم يشيدوا لأحد من الآلهة مناسك الا لهذا الاله . والآن أراني اتساءل عما اذا كنا نحن قد تقدمنا على هؤلاء الاسكيثيين . اذ ماذا ننفق الآن على البر والتربية والاداب والدين والعدل والحكومة المدنية وما هو هذا الذي ننفقه في جانب نفقاتنا الحربية التي نقدمها ضحية على منسك مارس ؟

منذ ليلتين خطبت طائفة كبيرة من المستمعين في هذه القاعة .

وكانت هـذه الطائفة مؤلفة الى حد عظيم من ابناء وطنكم الذين ليس لهم حقوق سياسـية لا تبدو أنوار الفجر حتى يشرعوا في الانكباب على أعمالهم لا يتحولون عنها حتى المساء . ليس لهم من الاسباب والوسائل ما يعينهم على تفهم هـذه المسائل المهمة . اما الآن فقد وفقت الى اسماع طائفة اخرى . فانكم تمثلون تلك الطبقة التي امتازت بتربية أوفى وحصلت على قدر أكبر من الذكاء في فهم بعض المسائل وفي ايديهم النفوذ والسلطة . . . ان في مقدوركم تكوين الاراء وايجاد السلطة السياسية ولن يخطر ببالكم فكر حسن عن هـذا الموضوع تفضون به الى جيرانكم . ولن تحدث بينكم وبين من تجتمعون بهم مناقشة تدلون فيها برأيكم حتى تؤثروا على سير حكومتكم اثراً سريعاً محسوساً

وهل تسمحون لي بان أطلب اليكم ان تعتقدوا كما اعتقد أنا اعتقاداً راسخاً ان القوانين الادبية لم تسن للافراد بل هي ايضاً قد كتبت للامم مهما كبر شأنها ، مثل هذه الأمة التي نحن أفرادها . واذا سخرت الامم بهذه القوانين الادبية ورفضت طاعتها فهناك العقاب الذي لا مفر منه . وقد لا يقع بها العقاب على الفور . بل قد لا يقع في حياتنا ولكن ثقوا بأن ذلك الشاعر الايطالي قد قال حقاً ونطق عن وحي نبوة عند ما قال : « سيف الله لا يتعجل ولكنه لا يتاخر »

خطبة لبوكر واشنطون

كان بوكر واشنطون (١٨٥٨ — ١٩١٥) زنجياً ولد في حجر العبودية في الولايات المتحدة الاميركية . فلما النغى الرق وجد نفسه صبياً معدماً .

فالتحق بأحدى الكليات يخدم فيها ويتعلم . ثم ترك الكلية مشيعاً بصداقة جميع الذين عرفوه . وتعين ناظراً لاحدى مدارس الزنوج وكانت مكتباً صغيراً ليس به سوى ثلاثين تلميذاً . فأخذ في ادارة المدرسة بهمة ومثابرة مدة عشرين عاماً يعلم فيها شباب الزنوج ويمدنهم ويثقفهم حتى صار عدد تلاميذه ١١٠٠ تلميذ وصارت قيمة مباني مدرسته وأموالها أكثر من مائة الف جنيه . قال عنه أحد الاميركيين البيض : « لقد عاش بيننا ردحاً طويلا من الزمن نبيل اميركي ذو بشرة سوداء ولد عبداً وضيعاً فرفع نفسه بقوة الخلق العظيم حتى صار وطنياً مكرماً يعجب به كل رجل ذي أريحية في كل مكان »

وكان واشنطون خطيباً مطبوعاً يخطب كما يتكلم فلم يكن يزين الفاظه بعبارات البديع أو يلجأ الى الخلابة لان دعوته لم تكن ترمي الى الاغراء أو الاغواء فان غايته كانت الحق واقناع سامعيه به . وقد القى الخطبة التالية في أحد المعارض في سنة ١٨٩٥ . قال :

ان ثلث السكان في جنوب الولايات المتحدة من الزنوج . فليس ثم مشروع يقصد به اصلاح الاحوال المادية أو الادبية او المدنية لهؤلاء السكان يمكن واضعيه ان يهملوا فيه شان شعبنا الذي ننتمي اليه. واني ايها الرئيس والمديرون انما أنقل اليكم عواطف سواد الشعب الزنجي عندما أقول انكم عنيتم بتمثيل رجولة الزنوج تمثيلا سخياً في هذا المعرض الفخم في جميع ادوار تقدمه . وهذا العمل سيزيد الصداقة التي تربط شعبي الولايات المتحدة متانة أكثر من اي عمل آخر منذ تحريرنا

وليس هذا كل الفوائد التي سنجنيها من هذا المعرض . فان فيه فرصة قد اتيحت لنا لكي نفتتح بيننا عصراً جديداً للتقدم الصناعي . لقد بدأنا حياتنا في عهدنا الجديد ونحن مغمورون بالجهل والغرارة لم نكسب علماً ولا تجربة . فلم يكن غريبا أن نبدأ من القمة لا من القاعدة . فصرنا نطمع في الحصول على مقعد في البرلمان أو في

بجلس الولاية التي نعيش في كنفها ونؤثر هـذا على شراء العقار أو الى تحصيل الفنون الصناعية . فكانت السياسة والخطابة تغوينا فنزع اليها ونهمل الزراعة أو صنع الالبان

لقد حدث مرة ان احدى السفن الضالة في عرض البحار رأت سفينة أخرى موالية قد ارتفعت لها على ثبج الامواج . فارسلت اليها اشارة عن صاريها تقول : « الماء . الماء . نحن نهلك من العطش » فجاءها الرد من السفينة الاخرى : « القوا دلوكم حيث أنتم » فاعادت السفينة المنكوبة اشارتها : « الماء . الماء . نحن نهلك من العطش » فجاءها الرد ثانياً : « القوا دلوكم حيث انتم » وتكررت الاستغاثة مرة ثالثة ورابعة فكان الرد لا يتغير . وأخيراً رأى ربان السفينة المنكوبة أن يستمع لاشارة السفينة الاخرى . فالقى دلوه ورفعه اليه واذا بالماء عذب رواء واذا بالسفينة تمخر عباب نهر الأمازون عند مصبه . فالى اولئك الافراد الذين تجمعني واياهم الوحدة القومية والذين يطمحون الى ترقية احوالهم في بلاد أجنبية والذين يبخسون قيمة تحسين العلاقات الودية بينهم وبين جيرانهم من البيض اقول : « القوا دلوكم حيث أنتم » القوه وصادقوا جميع الناس الذين تعيشون بينهم كائنة من كانت الشعوب التي ينتمون اليها

أقول القوا دلوكم في الزراعة والصناعة والتجارة والخدمة المنزلية وسائر الصناعات . وبهذه المناسبة يجب ان تتذكروا انه مهما كانت خطايا أهل الجنوب وذنوبهم نحو الزنوج ففي بلاد الجنوب وحدها يمكن للزنجي أن يجد الفرصة السانحة لكي يندمج في العالم التجاري . وهذا المعرض لسان ناطق بهذه الفرصة . وان اعظم

ما نتعرض له من الاخطار هو اننا في وثوبنا من العبودية الى الحرية قد ننسى انه يجب على سواد الشعب الزنجي أن يعيش بكد يديه. أو ننسى ان رقينا سيكون بنسبة اكبارنا وتمجيدنا للكد والكدح وبنسبة ما نصرف من مهارتنا وأذهاننا على الصناعات الوضيعة. وان رقينا سيتوقف على التمييز بين الحقائق والاوهام في هذه الحياة وبين ما هو نافع متمم وبين ما هو زينة زائلة. ولن يرقى شعب حتى يتعلم ويعرف ان افلاح الارض فيه من الشرف والجاه ما في كتابة الشعر. ويجب ان نبتدىء من القرار لا من القمة. ثم لا ينبغي أن تلهينا ظلاماتنا عن انتهاز الفرص

اما اولئك البيض الذين يؤثرون قدوم الاجانب ذوي الألسنة والعادات الغريبة لكي يشتغلوا معهم في اسعاد بلادهم على الزنوج فاني أقول لهم كما قلت لابناء قومي: « ألقوا دلوكم حيث انتم » القوه بين الثمانية الملايين من الزنوج الذين يعيشون بينكم والذين لا تجهلون أخلاقهم وعوائدهم. الذين قد بلوتم أمانتهم وحزمهم وقت عبوديتهم عندما كانت خيانة أحدهم تعني خراب البيت بأجمعه. القوا دلوكم بين هؤلاء الناس الذين حرثوا أرضكم واحتطبوا لكم من غاباتكم وبنوا مدنكم ومدوا لكم السكك الحديدية وأخرجوا لكم الكنوز من بطن الارض وكانوا سبب رقي بلادكم — الذين فعلوا كل ذلك دون أن يلجأوا الى اضراب او اثارة حرب بين العمال واصحاب الاعمال. انكم ان فعلتم ذلك وعاونتم افراد قومي وشجعتموهم كما تفعلون الآن في هذا المعرض وتناولتم رؤوسهم وأيديهم وقلوبهم بالتربية والتعليم وجدتم منهم من يشتري أرضكم

الفائضة فيمتلىء بور أرضكم بالازهار والانوار كما تمتلىء مصانعكم بالعمال

وأنتم في عملكم هذا ستتأكدون في المستقبل كما كنتم في الماضي من وجودكم ووجود اسراتكم محوطين بأودع الناس واصبرهم وأكثرهم أمانة واقلهم استياء في هذا العالم . وكما قد برهنا لكم على ولائنا لكم في الماضي نربي اولادكم ونرعى امهاتكم وآباءكم وهم في فراش المرض ونتبعهم الى قبورهم أحياناً وعيوننا تفيض بالدموع فكذلك في المستقبل سنقف الى جانبكم وسترون منا براً لا يجارينا فيه اجنبي نرخص فيه الحياة في سبيل الدفاع عنكم وتشتبك حياتنا بحياتكم في الصناعة والتجارة والدين بحيث تتحد مصالح الشعبين . وفي مقدورنا أن ننفصل في الاشياء الاجتماعية كما تنفصل اصابع اليد ولكننا نصير كاليد كتلة واحدة متحدين في جميع الشئون الاساسية الخاصة بالتقدم المتبادل

خطبة لروزفلت

كان روزفلت (١٨٥٨ — ١٩١٩) رئيساً للولايات المتحدة الاميركية « وكان يتسم بالهمة التي لا تني . فما دام هناك شيء جدير بأن يعمل فهو عنده ينهض به دون اكتراث للعوائق . . . وكان يضيف الى نشاطه الجسمي والعقلي نشاطاً أدبياً لا يمكن لرجولة الرجل أن تتم بدونه . وكان من سمات أخلاقه شرف المقصد واحساس رفيع بالواجبات العمومية . . . ان روح الحضارة الاوربية الحقيقي كان متمثلا تمثيلا كاملا في تيودور روزفلت »

وقد القى الخطاب التالي في سنة ١٨٩٩ في مدينة شيكاغو . قال :

أيها السادة : اني في مخاطبتي اياكم وانتم رجال أكبر مدينة في الغرب ورجال الولاية التي خرج منها لنكولن وجرانت وأنتم

الذين تمثلون احسن تمثيل الصفات الاميركية في الخلق الاميركي لا أريد لن احدثكم عن مذهب الدعة المخزية . بل سيكون كلامي عن مذهب حياة الكفاح . حياة الكد والجهد . والعمل والنزاع . أريد أن أعظكم بارفع اشكال النجاح الذي لا يناله رجل الدعة ولكن يحصل عليه ذلك الرجل الذي لا يحجم عن المخاطر او المشقات او الكد المضنى وينال في الختام من كل هذه الاشياء نصراً عظيماً

ان حياة الدعة حياة الهدوء التي تنشأ من عدم الطموح الى تأدية الاعمال العظيمة او من عدم القدرة على الكفاح هي حياة غير جديرة بامة او بفرد . اني أطلب من الامة الاميركية ما يطلبه كل اميركي ذي كرامة من نفسه ومن أبنائه . فمن منكم يرضى بان يعلم أبناءه بانه يجب ان يكون للدعة والهدوء المحل الاول من اعتبارهم وان يكونا الغاية التي يطمحون الى تحقيقها ؟

انكم يا اهل شيكاغو قد جعلتم بلدتكم هذه عظيمة . وأنتم يا أهل الينواس قد قمتم بنصيبكم في رفع اميركا الى مقام العظمة لانكم لا تقولون بالدعة ولا تمارسون مذهبها . انكم تشتغلون بانفسكم وتطلبون من اولادكم أن يشتغلوا مثلكم . فاذا كنتم ميسورين وكنتم تستحقون ثروتكم فانكم ستغرسون في نفوس ابنائكم انهم وان كانت لهم أوقات فراغ فلا يجب ان يقضوها في الكسل . لان أوقات الفراغ اذا أحسن استعمالها عادت باكبر الفوائد . لان الغني الذي لا يضطر الى الكد لمعاشه يجب عليه ان يقضي وقت فراغه في الابحاث العلمية او الادبية او الفنية او في الاستكشاف الجغرافي او التاريخي . فان هذه كلها اعمال

تحتاج اليها هذه البلاد ونجاحها جدير بأن يرفع شان امتنا

اننا لا نعجب برجل الدعة الذي يجفل من العمل ولكننا نعجب بالرجل تتجسم فيه الجهود الظافرة . ذلك الرجل الذي لا يؤذي جاراً والذي يبادر الى معونة الصديق ولكنه مع ذلك حاصل على صفات الرجولة اللازمة في الانتصار في معارك الحياة القاسية . وليس من ينكر مشقة الفشل ولكن شر من الفشل ألا يحاول الانسان النجاح . وفي هذه الحياة الراهنة لا نحصل على شيء ما الا بالجهود . ومن ليس في حاجة الى جهد في وقته الراهن كان في حاجة اليه في الماضي وقد اختزن منه حاجته للمستقبل . فانما يتحرر الانسان من قيد الاضطرار الى العمل لانه هو أوآباؤه قد عملوا في الماضي ونجحوا . فاذا كانت هذه الحرية قد احسن استعمالها واذا كان صاحبها لا يزال يشتغل شغلاً من طراز آخر كأن يكون كاتباً أو قائداً أو يشتغل بالسياسة او بالاستكشاف فانه بعمله هذا يثبت جدارته لثروته. أما اذا كان يعتبر خلو باله من هموم الكدح للمعاش فرصة للتمتع بضروب اللذات فانه عندئذ يصير عالة على الناس ثم هو مع ذلك يجعل نفسه عاجزاً عن المنافسة والجهاد مع اخوانه اذا دارت الدوائر وتطلبت منه الاحوال ذلك. فان حياة الدعة ليست مما يرغب فيه لانها تعجز الذين يمارسونها عن العمل الجدي في هذا العالم

وكما يسري هـذا على الفردُ فكذلك يسري على الامة . وانه لمن الاكاذيب السافلة ان يقال ان الامة التي لا تاريخ لها تكون سعيدةً . فاسعد منها مرتين بل ثلاثا تلك الامة التي تباهي بتاريخ مجيد . والاقدام على جلائل الاعمال ونيل الفوز المجيد وان تخلل

ذلك حبوط المسعى خير من أن يعد الانسان في صف اولئك الضعاف الذين لا يتمتعون كثيراً ولا يتألمون كثيراً لانهم يعيشون في غبشة الغسق فلا يعرفون ظفراً او هزيمة . ولو ان الاميركيين الذين كانوا يؤمنون بالاتحاد في سنة ١٨٦١ كانوا يعتقدون ان السلام هو غاية الاماني وان الحرب والنزاع شر الاشياء ولو انهم عملوا بما آمنوا لكنا قد وفرنا دماء الالوف ومئات الالوف من النقود . ثم كنا الى جانب هذه الدماء وهذه النقود نوفر على النساء أحزانهن وخراب بيوتهن وكنا وفرنا على بلادنا تلك الايام السوداء عندما كانت جيوشنا تسير نحو المعركة فكانها تسير نحو الهزيمة فتملأ قلوبنا خزياً وأسفا . كان في مقدورنا ان نتجنب جميع هذه الآلام بان نحجم عن القتال والكفاح . ولكننا لو كنا قد فعلنا ذلك اذن لصرنا ضعافاً انكاسا غير جديرين بالوقوف في مصاف الدول العظمى . فلنشكر الله انه مزج دماء آبائنا بالحديد . اولئك الرجال الذين نصروا لنكولن وآمنوا بحكمته وساروا الى القتال تحت راية جرانت . فعلينا نحن أبناء الرجال الذين ارتفعوا الى مستوى تلك الايام العظيمة . نحن ابناء اولئك الابطال الذين ساروا بالحرب الاهلية الى الفوز النهائي . علينا ان نشكر الله لان نصائح الصلح قد ردت وان الآلام والخسائر والاحزان قد قوبلت دون خور . لان ختام هذه الحرب قضى على عبودية الزنوج وعاد الاتحاد وظهرت الجمهورية الاميركية العظيمة ملكة متوجة بين الامم

وليس علينا نحن ابناء هذا الجيل ان نواجه مثل هذه المهمة التي وقعت على كواهل آبائنا ولكن لنا نحن ايضاً مهماتنا وويل

لنا اذا لم نؤدها . فلسنا نستطيع – حتى لو أردنا – ان نعيش كما يعيش الصينيون تبلى أجسادنا وعقولنا في دعة لا نهتم لما يحصل خارج حدود بلادنا نتخبط في المبادىء التجارية لا نعنى بالحياة العليا حياة الاماني والكد والاخطار نقصر جهدنا على حاجات يومنا الجسمية . حتى نرى في احد الايام كما رأت الصين ان الامة التي تعيش في هـذا العالم عيشة الدعة والسلام والبعد عن الطرق الحربية تنهزم امام الامم التي لم تفقد صفات الاقتحام والرجولة . فاذا نوينا نية صادقة أن نكون امة عظيمة فعلينا ان نمثل دوراً عظيماً في هذا العالم . وليس من المستطاع ان نتجنب مواجهة المسائل العظمى . وكل ما علينا ان نقر على نوع هـذه المواجهة ان حسناً وان سيئاً

خطبة للرئيس ويلسون

كل من يذكر الحرب الكبرى يذكر أيضاً ويلسون (١٨٥٦ —) أحد أساتذة جامعة برنستون ثم رئيس الولايات المتحدة . وقد قال أحد فلاسفة الاغريق ان الامم لن تسعد حتى تصير قادتها فلاسفة وفلاسفتها قادة . فلما صار ويلسون الى مركز الرياسة تطلع الناس ليروا ما سيجنونه من سياسة الفيلسوف . وحدث في عهده أكبر أزمة كابدها الضمير البشري في تاريخ الانسان . وهي الحرب الكبرى . وكانت في لبها حرباً مادية تستحثها الاطماع السافلة في امتلاك المال والعقار . فلم تكن تختلف عن حروب المتوحشين الافريقيين الا من حيث الكمية لا من حيث النوع . ولكن الامم المتحاربة أرادت أن تجند العواطف وتحمي القلوب . فاخترعت الفاظاً لم تكن مألوفة في الحروب السابقة مثل الحق والعدل وما اليهما . فاغتر بها الفيلسوف ويلسون وزج بأمته في هذه الحرب ونال النصر ثم جاء السلم فنالته الهزيمة . فقد حاطه ساسة أوربا وأخذوه بأساليبهم حتى خرج من قاعة المفاوضات في النهاية ولم يرع لمبادئه نصيراً

ولكن يكفي ويلسون فخراً أن يتهكم عليه مسيو كليمانصو فيقول فيه « أنه يظن نفسه أنه المسيح »

وخير الناس أن ينخدعوا بالمبادىء العليا ويعتقدوا أنهم يؤمنون بها رأن تحقيقها مستطاع مثل ما فعل ويلسون من أن يؤمنوا بالحقائق وينزلوا عند حد الاطماع البشرية كما فعل مسيو كليمانصو

وفي ما يلي يرى القارىء مثالا من خطب ويلسون وموضوعه : « الحرية الجديدة » . قال :

مهما أكثرنا من التفكير في حادثة استكشاف اميركا فان هذه الحادثة لا تزال تثير خيالنا وتهتاجنا . فقد سلفت قرون كان وجه اوربا يتجه فيها نحو الشرق . فكانت طرق التجارة ودوافع النشاط تسير نحو الشرق . وكان المحيط الاطلسي أشبه شيء بالباب الخلفي للمنزل . ثم فوجىء الاوربيون باستيلاء الاتراك على القسطنطينية ووقوفهم سداً حائلا بين اوربا والشرق . فكان على اوربا اما أن تتجه نحو وجهة أخرى واما أن تقف مشلولة الحركة لا تجد منفذاً لنشاطها . وفي النهاية أقدم الناس على هـذا البحر الغربي المجهول مجازفين بارواحهم وعلم سكان الارض عندئذ ان أرضهم تبلغ ضعفي ما كانوا يعتقدون . ولم يجد كولمبوس كما كان ينتظر حضارة الصين بل وجد قارة غير عامرة . ففي هذا الجزء من العالم على هذا النصف الآخر من الكرة الارضية اتيح للانسان في تاريخه الحديث ان يؤسس حضارة جديدة لها ميزة التجربة الجديدة

•

فمثل هذه الفرصة الفريدة جديرة بأن تحرك العواطف عنـد جميع من يتبصرون في غرابتها وفي قيمتها . فقد يستطيع الانسان ان يؤلف آلافاً من التواريخ الخيالية لهذه الارض ولكن لا يبلغ

خياله الى اختراع قصة يكون فيها نصف العالم مخبوءاً حتى ينضج الزمان و يتهيأ للشروع في ايجاد حضارة جديدة . فقد كان طمع ربان سفينة في الاهتداء الى طريق بحري سبباً في امتياز أدبي للانسانية . فقد قدر للانسان ان يؤسس هيئة اجتماعية جديدة في هذه الارض الميمونة التي لم يقترب منها انسان كما كان يقول السياح الا و ينتعش بهواء الغابات الملتهبة بالازدهار و يطرب لخرير المياه الصافية التي تنساب بين اشجارها

فهذا النصف الآخر من الكرة الارضية كان راقداً ينتظر مس الحياة ـ حياة من العالم القديم حتماً ولكنها قد طهرت من الادران وعولجت من الاعياء لكي تليق بطهارة العروس العذراء

فكل هذا يستطير الخيال كانه رؤيا عجيبة بل تحفة جميلة لا يسخو الزمان بمثلها مرة اخرى

والآن نتساءل : ماذا كان في ما كتبه اولئك الناس الذين أسسوا أميركا مما يروج مصالح اميركا بالذات و يعود عليها بالفائدة وحدها دون غيرها ؟ هل تجدون للاثرة مكانا في هذه الكتابات ؟ كلا . فانهم انما كانوا يكتبون خدمة للمبادىء الانسانية ولتحرير الانسان . فاقاموا مقاييسهم الادبية هنا في اميركا على دعائم الأمل شعلة تستضيء بها أمم العالم وتتشجع منها . واخذ الناس يأتون الى شواطىء هذه القارة وهم يحدوهم رجاء لم يكونوا يعرفونه من قبل وثقة لم يكونوا يجرأون على الشعور بها من قبل ثم وجدوا هنا عدة أجيال مكاناً قد انتشرت فيه الطمأنينة والامن وعرضت فيه لهم الفرص وصاروا فيه مستوين . وعسى الله ـ في هذه الاحوال المرتبكة التي تحوطنا الآن ـ يلهمنا ان نرجع الى تلك المقاييس

ونقوم بمثل تلك الاعمال المجيدة التي يزدان بها ذلك العصر السعيد

لقد مرت بذهني مراراً عديدة صورة لتلك الشروط التي تتألف منها الحرية . ولبيانها لكم افرض أني اريد ان ابني آلة قوية واني في اقامة أجزائها قد جمعتها من غير مهارة او لباقة بحيث اذا اردت ادارتها وتحرك احد الاجزاء وقف في سبيل حركته جزء آخر فينتهي الحال بوقوف الآلة . فحرية هذه الاجزاء تنحصر في اجتماعها على أحسن شكل وتآلفها على احسن وجه . فاذا أردت من كابس الآلة البخارية أن يسير باكمل حريته فليس عليك سوى أن تضعه بحيث يأتلف بسائر أجزاء الآلة فلا يتعارض واياها عند الادارة . فليست حريته في أن يكون منفرداً في عزلة على حدة بل في وضعه وضعاً ملائماً موافقاً بيد ماهرة في جسم الآلة . فالحرية الانسانية هي كذلك تنحصر في الملاءمة والتوفيق بين المصالح الانسانية والنشاط الانساني

فهل نحن في هذا المعنى الجديد محتفظون بالحرية في هذه البلاد التي هي رجاء هذا العالم ؟ فالجواب على ذلك يقيناً هو اننا قد سرنا شوطاً بعيداً نحو الخيبة التي تجلب الحسرة والاسى للنفس . ونحن الآن في خطر الوقوع في الخيبة التامة الا اذا أمضينا نيتنا نحو الغاء المظالم الدقيقة الخفية ووضعنا لكل منها العقاب الذي تستحقه واياكم وخدع أنفسكم عن مبلغ نفوذ المصالح الكبرى التي تتحكم في رقينا ومدى قوتها . فان لهذه المصالح من القوة والنفوذ ما يجعلنا نرتاب في ما اذا كانت حكومة الولايات المتحدة تستطيع ان تتحكم فيها . فاذا انتم تهاونتم واكتسبت هذه المصالح صفة دائمة لنفوذها

لصار عندئذ اصلاح الحال من المحال

اني أومن بالحرية الانسانية كما اومن بنبيذ الحياة . وليس في رعاية أصحاب المصانع للامة تلك الرعاية المؤسفة وفي تنازلهم للنظر في مصالحها ما يسير بالانسان نحو الخلاص . اذ ليس للاوصياء مكان في بلاد الاحرار لأن تلك السعادة التي تأتي عن طريق القوام لا يرجى لها دوام او بقاء

ان الاحتكار الذي يرمي اليه أصحاب المصانع يؤول الى قتل جهود الافراد . واذا ألح المحتكرون في الاحتفاظ بقوتهم فانهم سيقبضون بايديهم على دفة الحكومة . ولست آمل أن يضبط هؤلاء الناس انفسهم لأنه اذا كان في البلاد أقوياء قادرون على أن يمتلكوا زمام الحكومة فهم هؤلاء الاقوياء . وعلينا نحن أن نستقر على قرار ونعقد نيتنا على وضع أيدينا على الحكومة . وهذا لا يكون الا اذ كنا رجالا بل رجالا عظاماً

ويجب علينا أن نزرع الشعور اللطيف والرحمة في قلوب الناس وذلك بان نجرد السياسة والاعمال والصناعة من جمود الاحساس والقسوة . فيجب أن تكون السياسة من الامور التي يستطيع رجل شريف أن يمارسها راضياً لأنه يعرف ان رأيه له من المكانة في القانون مثل ما لرأي جاره وانه ليس لرئيس المصنع او للمصالح الصناعية المختلفة تأثير عليه

*

خطبة للويد جورج

ولد لويد جورج في سنة ١٨٦١ واشتغل وكيلا للدعاوي في ويلز وفي سنة ١٨٩٠ دخل البرلمان عضواً في حزب الاحرار وفي سنة ١٩٠٥ صار وزيراً للتجارة واحتفظ بمركز الوزارة الى ان جاءت سنة ١٩١٦ وكانت الحرب الكبرى في عنفوانها . فصار رئيساً للوزارة فرفع مستوى الجهود الحربية في انجلترا وبقي في الرياسة الى أن عقد الصلح على يده . ولويد جورج هو بلا مراء « رجل الجماهير » يسايرهم ولا يقودهم الا عند ما لا يجد خطراً في القيادة . يغريهم وقد يغويهم . ولكنه اذا عاد الى نفسه وتبين خطأه رجع عنه . وقد يكون رجوعه بعد أن تفوته الفرصة . ولكن الندم نصف التوبة . فقد أغوى الجمهور الانجليزي بضرورة محاكمة امبراطور المانيا وكسب الانتخاب بهذه الصيحة الخبيثة . ثم ندم فلم يذكرها ثانيا . وعقد صلحاً مع المانيا يقضي بفنائها . ثم ندم . فالف كتاباً يدعو فيه الى حماية المانيا من فرنسا . والخطبة التالية القاها بمناسبة دعوة صلح عرضتها المانيا حوالي سنة ١٩١٧ لم ترق الحكومة الانجليزية .قال فيها :

أقف اليوم في مجلس العموم وانا مثقل باروع تبعة يستطيع حملها أي انسان باعتباري الوزير الاول للتاج وفي وسط أكبر حرب خاضتها هذه البلاد وهي حرب يتوقف ايضاً عليها مصيرها . وقد تاكدت تبعة الحكومة وزادتها فداحة تلك التصريحات التي القاها الوزير الالماني وها انا ذا أتناول امامكم هذا الموضوع الآن . وقد جاءتنا على اثر هذه التصريحات التي القيت في الريخشتاج مذكرة من سفير الولايات المتحدة تتضمن هذه التصريحات دون أي تعليق من حكومته . . .

ولقد سرني غاية السرور ان فرنسا وروسيا قد أجابتا على هذه التصريحات الجواب الاول . وهما بلا شك لهما الحق في ان يجيبا

الجواب الاول . فان العدو لا يزال في ارضهما وضحاياهما أكبر الضحايا . وقد نشر هذا الجواب في جميع الصحف وأنا اقف هنا بالنيابة عن الحكومة لكي أوازر هاتين الحكومتين في جوابهما مؤازرة صريحة . وهنا يجب أن أقول ان الرجل او الرجال الذين يتحملون تبعة تطويل مدة حرب هائلة كهذه الحرب بدون سبب وجيه انما يرتكبون جريمة لا تغسلها عن انفسهم بحار من الدموع . ثم ان رجلا او رجالا يكفون عن الحرب لما نال انفسهم من السأم والجهد قبل ان نحقق الاغراض العظمى التي دخلنا الحرب من اجلها انما يرتكبون اثماً من الجبانة والعار لا يعدله أي اثم آخر . وهنا يليق بي ان اقتبس من ابراهام لنكولن كلمة قالها وهو في ظروف مثل هذه التي نعانيها الآن : « لقد دخلنا ونحن نتوخى تحقيق غرض شريف وستنتهي الحرب عند ما يتحقق هذا الغرض . وادعو الله ألا تنتهي الحرب الا في ذلك الوقت » فهل نحن نحقق هـذا الغرض بقبولنا دعوة وزير المانيا ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يجب ان نلقيه على انفسنا

فشروط الصلح التي نقبلها هي كما قال مستر بونارلو : « رد المسلوب والتعويض والضمان بألا يحدث ما حدث من المانيا »

ولكن لكي لا تتسرب الاغلاط ـ ومن المهم ألا تتسرب الاغلاط في مسألة موت ملايين وحياتهم ـ يجب أن أقول ان ما نطلبه هو رد المسلوب باجمعه . والتعويض التام . والضمانات الناجعة . فهل نطق وزير المانيا بكلمة تدل على انه يقبل هـذه الشروط ؟ فهل ألمع المـاعاً الى رد المسلوب ؟ وهل اقترح شيئا بشأن التعويضات ؟ وهل قالَ شيئاً يدل على ضمان المستقبل من أن

تحدث فيه مثل هذه الحرب الفظيعة تفاجىء بها المانيا الأمم عند ما تجد أن الفرصة سانحة ؟ كلا . فان مادة خطبته وأسلوبها ينكران القواعد التي لا يمكن لصلح ما أن يقام على غيرها . فهو لا يعرف للآن ولا يشعر ان المانيا قد جنت على حقوق الأمم الحرة . فاصغوا الى قوله هـذا : « ان دولتي الوسط لم تحيدا عن الاعتقاد لحظة واحدة بأن احترام حقوق الامم الحرة لا يتناقض ومصالحهما الشرعية وحقوقهما » . فمتى عرفتا احترام حقوق الأمم الاخرى عند ما دخلت جيوشهما في بلجيكا ؟ لقد قيل ان ذلك كان دفاعا عن النفس . فلعل الالمان قد رأوا انفسهم مهددين بخطر غزو الجيوش البلجيكية الجرارة لبلادهم فغزوا هم بلجيكا واحرقوا بلدانها وقراها وذبحوا الآلاف من سكانها كباراً وصغاراً واسترقوا بعد ذلك من بقي من الاحياء . فما هو الضمان لـكي لا تعاد مثل هذه الافاعيل حتى اذا تعاقدنا في صلح علمنا ان هـذا الصلح قد ختم روح الحرب البروسية . وهل نحن نستطيع اذا لم نحاسبهم على ما جنوه من الفظائع في البر والبحر أن نصافح اليد التي ارتكبت هـذه الاثام دون أن يدفع التعويض عنها ؟ ان علينا ان نطالب بالتعويض وقد شرعنا في ذلك . اننا تكلفنا كثيراً في هذه الحرب فنحن مضطرون الى الحصول على التعويض حتى لا نترك لاولادنا هذا الميراث السيء

واذا كنت في هذه الحرب لم أكترث للدعوة الحزبية فذلك لأني قد تحققت منذ اللحظة التي هدرت فيها المدافع وصبت الموت على بلاد صغيرة وديعة ان الالمان قد تحدوا الحضارة وقدموا وقفونا حيال مسألة تعدو الاعتبارات الحزبية . وهي مسألة يتوقف على

تسويتها حظ الناس في المستقبل عند ما تتساقط الاحزاب الراهنة كالاوراق الجافة الميتة . فهذه اذن هي المسالة التي يجب أن تبقى ماثلة امام الامة وذلك لكي لا تعتري الشكوك عقائدنا ولا التردد قضيتنا . وفي كل حرب طويلة يجيء وقت ينسى فيه الناس وهم في وغرة القتال وحدة الشهوات ذلك القصد السامي الذي ادخلوا الحرب من اجله . فان هذه الحرب نزاع لاحقاق الحقوق الأممية والشرف وحسن النية بين الدول . وهذه هي الطريق التي تؤدينا نحو السلام على الارض والارادة الحسنى بين الناس . فقد هدمت الاسوار التي كد في بنائها اجيال من الناس لكي يصدوا بها تيار الهمجية ولو لم تدخل بريطانيا بقوتها الى هذه الثغرة التى انفتحت فى اوربا لغمر هذه القارة فيضان من التوحش والجبروت المطلق

ان انتصار بروسيا يدع الانسان فى حمأة من الفظائع و يقضي على روح الانصاف بين الأمم وعلى نمو هذا الشعور الذي يقضي بحماية الضعيف من القوي كما يقضي ايضاً على هذا الشعور الاقوى بان للعدالة شيئاً ينصرها اسمى من الشره وأن انتهاك حرمة المعاملة الحسنة بين الأمم الكبيرة او الصغيرة يجلب على المنتهك العقاب العاجل الصارم . وهذا هو السبب فى انني منذ بداية هذه الحرب لم اضع نصب عيني سوى قصد سياسي واحد قد جاهدت فى سبيله وهو تخليص النوع البشري من اعظم نكبة نزلت به توشك ان تقضي على سعادته

فهرس الكتاب

الجزء الاول

عيون الخطب العربية

صفحة

صفحة

الجزء الثاني

عيون الخطب الافرنجية